مسلمون في اليمن

مؤلف

أبي محمد علي سهني إبن سهوي

دار الأبحاث الإسلامية

ويتفق - تزود
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبع الأولى
الخاصة بدار ابن كثير
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩

وزارة الإعلام - مديرية الرقابة
رق الموافقة ٥٦٨٤ تاريخ ٧/٩/١٩٩٩

توضيح: طباعة هذا الكتاب
تسلية المؤلف
خليفة عبد اللطيف

دار ابن كثير
وبتشقيق حكينة جادة ابن سيما
ص. ب: ٣١١ - تلفون: ٥٥٨٧٧٧ - ٢٠٥٣
مبيت بورج أبى كيصر حكيم كيروس الأصلي
ص. ب: ٢٢١٨ - ١١١ - تلفون: ٨٨٦٧٨٥١٩ - ٢٠٥٣
مقدمة الطبعة الثالثة

بكلام الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وبعد، فهذه طبعة جديدة لكتاب «المسلمون في الهند» لفضيلة أستاذنا الجليل السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وهي طبعة أوسع وأشمل من سابقتها، فقد اشتملت على معلومات زائدة ومواد علمية جديدة.

لقد وضع المؤلف حفظه الله هذا الكتاب من أحاديثه التي نشرها بدار الإذاعة الهندية العربية بدلهي الجديدة قبل أكثر من عشر سنوات، وكانت تثير جوانب دينية وعلمية وحضارية من حياة المسلمين في هذه الربوع الواقعة البعيدة عن مهد الإسلام، والتي حكمها المسلمون سبعة قرون قبل تسلط الاستعمار الإنجليزي عليها.

سبعة قرون لم تكن مدة قصيرة حتى تمر بدون أن تترك على
صفحات هذه الأرض آثراً عظيمة باقية في مجالات مختلفة من حياتها.

لقد امتازت الأمة الإسلامية في الهند بميزتين بارزتين، أولاها: أنها حافظت على الشخصية الدينية الأساسية التي نشأت عليها بتأثير التعاليم الإسلامية التي غذتها بها مدارسها الدينية المنتشرة في طول البلاد وعرضها وتاثير الدعوة الدينية التي كان يقوم بها رجال العزيمة والعاطفة الإسلامية المشرقة عبر التاريخ السابق، وأخراها: أنها ساهمت في بناء البلاد وترقيتها اجتماعياً وأدبياً ومدنياً، وشاركت في زيادة الثروة الفكرية والأدبية فيها، وبذلك كله أصبحت صورة الهند صورة مزدادة بنمذج رائعة من الامتزاج الثقافي والعقلي وظهور الصورة الإسلامية الممتازة فيها، ونشأت للمسلمين من خلال ذلك شخصية إسلامية متميزة، فيها القوة والأصالة والغيرة والاعتزاز.

يختار المؤلف - حفظه الله - منها صوراً يعرضها في هذا الكتاب، وهو بذلك هدية ممتعة من مسلمي الهند إلى غيرهم فيها صورتهم الواقعة.

ويجد مجمعنا الإسلامي العلمي نفسه سعيداً بتقديم هذه الهدية إلى القارئ العربي بعد زيادات عديدة ومفيدة قام بها فضيلة المؤلف - حفظه الله - في مرحلتين من طبعات الكتاب في
مواد الكتاب ومعلوماته، وإضافة موضوعات جديدة إليه هي:

(1) الحركة العلمية القديمة في الهند - مراكزها ومزاعها.
(2) مزايا منهج التعليم القديم.
(3) شخصية المسلم الهندي - مقوماتها ومصادرها.
(4) الأحوال الشخصية الإسلامية في الهند.
(5) الاضطرابات الطائفية وأثرها على المسلمين.

ولقد نقل هذا الكتاب إلى عدد من اللغات الكبيرة، نشر المجمع الإسلامي العلمي منها الترجمة الإنجليزية والأردنية بالإضافة إلى نسخة العربي هذا، وهذه طبعة ثالثة يصدرها المجمع من طبعات الكتاب. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

١٤٠٧ / ٤ / ٢٢
١٩٨٦ / ١٢ / ٢٥

محمد الرابع الحسني الندوي
أمين المجمع الإسلامي العلمي
الحمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

كنت في رحلتي في الشرق الأوسط (1) أواجه سؤالاً كان يتكرر ويوجه في كل مجلس وفي كل مناسبة: ما عدد المسلمين في الهند؟ فأجيب أنهم أربعون مليوناً (2)، وهناك يندهش الناس ويندفع بعضهم قائلاً: يا سلام أربعون مليوناً! فلولا ثقتهم بالضيف ولولا الجد في الجواب، لسارعوا إلى التكذيب أو الشك على الأقل، لأنهم ما كانوا ينتظرون بعد ما سمعوا عن موجات الهجرة الكبيرة وعدد النازحين الضخم، أن المسلمين

(1) كانت هذه الرحلة التي شملت السعودية ومصر والسودان وسوريا وفلسطين سنة 1951 م.
(2) ويقدر الآن عددهم ما بين خمسين مليوناً وستين مليوناً، ويرى بعض أهل الخبرة أنهم أكثر من ذلك.
سيكونون مليوناً واحداً فضلاً عن أربعين مليوناً، إذا فلا غربة في استغراقهم.

لقد كانت هذه مفاجأة لا تفارقني أينما حللت ونزلت، مفاجأة للطرفين، مفاجأة للسائلين عن عدد المسلمين في الهند، ومفاجأة للمجيب لاستغراقهم، وهناك مفاجآت أخرى فيما يتصل بالمسلمين في الهند، فالأولى كانوا يعرفون أن في الهند عدداً كبيراً من المسلمين - على قلة هؤلاء - كانوا يعتقدون أن المسلمين لا شأن لهم في هذا القطر العظيم، ولا يعتزونهم حضارة خاصة، ولا ثقافة واسعة، ولا أداب سامية، ولا مؤسسات علمية، ولا نشاط ولا إنتاج في العلم والأدب، وإنما هم كالرعاع أو أمة قد أفلست في كل مقومات الحياة، وفي كل ما تعتز به أمة من علم وأدب، ودين واتصال، وأخلاق ومروة.

بل قد كان بعض الإخوة يسألون: هل في الهند مساجد، هل فيها مدارس دينية، هل عندكم علماء، هل يوجد هناك من يحسن أن يقرأ القرآن؟ هل هناك من يفهم العربية؟ أستمتع على أن معلومات إخوتنا العرب عن المسلمين في الهند ضئيلة جداً، وتدل كذلك على أنه قد أثير نقع كبير حول المسلمين في الهند، وتدل كذلك على تقصير علماء الهند في القيام بجهود التعرف بهذا القطر العظيم، وبهذة الأمة الإسلامية العظيمة التي مثلت
دورًاً رائعاً في تاريخ الإسلام وتاريخ العلم العام، وأضافت ثروة ذات قيمة عظيمة إلى مكتبة الإسلام العامة، وأحتفظت بها بطرف غالية تجعلها المكتبة العربية، وتزدهر بها على سعتها وغناها، وتفردت بعض العلوم الإسلامية التي كانت ولا تزال فيها الهند زعيمة العالم الإسلامي وحاملة لوائها عدة قرون، كعلم الحديث والفقه وأصوله، في القديم والسيرة النبوية وعلم الكلام والدعوة إلى الإسلام، في هذا العصر.

وأنتجت الهند رجالًا شهد لهم علماء العرب بالفضل، وعكقووا على كتبهم ومؤلفاتهم ينقلون ويقتبسون ويستدلون ويجتقرون، وقد أنتجت كذلك علماء يندر نظيرهم في الذكاء، وخصوصية الفكر والابتكار العلمي، وأنجبت كذلك فضلاء لا يضائعون في كثرة المؤلفات والإنتاج، وقد أنتجت من الملوك رجالًا يتفادون في حسن سياستهم وتنظيمهم الدولة، وحسن القوانين العادلة، وفي فضائلهم الخلقية، والعلمية والعملية، والجمع بين الدين والدنيا.

ولا تزال الهند مأهولة بشعب مسلم قوي في دينه، غني في علمه وبرجاءه، مخصص في عقله، متوفد الذهن نشيط مصمم على الإقامة في وطنه الذي خدمه ألف سنة، وأغناه في العلم والحضارة، والدين والاجتماع، وكان من صانعيه.

إن من الجفاء أن تبقى هذه البلاد الغنية بجمالها وأعمالها
وماضيها وحاضرها مجهولة عند أصدقائها في الخارج، مطورة في صفحات التاريخ، ولكن التبعة في ذلك على أبنائها قبل أن تكون على أصدقائها، لأنهم فرطوا في تقديم هذه البلاد، وما تميز به من فضل وعلم وحياة ونشاط، إلى الناطقين بلغة الضاد، وانطروا على نفوسهم وعاشوا في العزلة عن العالم.

ولكنني إذا ذكرت أبناء الهند بالقصير في جنب بلادهم الأم، فإني أعتذر إلى روح مؤرخ الهند الكبير الذي خلف لأبناء البلاد العربية مكتبة كاملة في تاريخ الهند ووصفها، وقام وحده بما تقوم به المجامع العلمية في أوربا، بجمالها وعدتها، ألا وهو المرحوم العلامة السيد عبد الحسيسي مدير ندوة العلماء الأسبق (1341 هـ - 1923 م) الذي ألف في ترجمة أعيان الهند كتابه "نزة الخواطر" في ثمانية مجلدات كبار، تشمل على نحو خمسة آلاف ترجمة (1)، وفي تاريخ الهند العلمي والتعليمي "عواف المعارف" الذي أصدره المجمع العلمي العربي بدمشق باسم "الثقافة الإسلامية في الهند" (2) وفي خطط الهند وآثارها

(1) ظهرت طبعتين من هذا الكتاب الجليل في ثمانية أجزاء، أصدرتها دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد، الهند.
(2) صدرت الطبعة الثانية مزيدة منحتة مع ذيل وتكملة من المجمع سنة 1984 م.
كتابه "جنة المشرق" (1) فإنه قد قضى ما عليه وزاد، جزاه الله عن المسلمين في الهند خير ما يجري العاملين المخلصين.

أراني قد قسوت بعض الشيء مع إخوتي الكرام في الأقطار العربية العزيزة الذين لم تمكنهم شؤونهم الخاصة من دراسة تاريخ الهند وخاصة المسلمين غابهم وحاضرهم، فإنني والحق يقال - وجدت فيهم عدداً لا يستهان به من المتتبعين لأحوال الهند والمطلعين على آثارها الإسلامية (2)، الذين لا يزالون يشيدون بفضلها في بعض العلوم الإسلامية، وحراستها لأمانة الحديث الشريف، فبعد ما ركدت ريحه في البلاد العربية، وقد رأيت حرصاً كبيراً في كل بلد عربي على معرفة الهند، وتطلعات إلى إخوتهم المسلمين في الهند، وعناية خاصة بهم وانتباعهم إليها في حكم الدين والثقافة الإسلامية.

(1) صدر هذا الكتاب من دائرة المعارف العثمانية، اصدر آباد سنة 1292 هـ - 1973 م باسم "الهند في العهد الإسلامي" لأنه أدل على موضوع الكتاب وأقرب إلى الذوق العصري، ونقل إلى الانجليزية باسم India During Muslim Rule.

(2) صدر حديثاً كتاب "الإسلام في الهند" لصاحب الفضيلة الدكتور عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف في مصر سابقاً)، وهو أول كتاب يصدر في الشرق العربي مؤسساً على دراسة ومعرفة وإخلاص، ويسعد عوزاً كبيراً في المكتبة العربية.
وبسبب ما عرف به المسلمون في الهند قدماً وحديثاً من الغيرة على الإسلام، والتعصب للعلوم الإسلامية العربية، والحرص على الجامعة الإسلامية.

ذلك يدفعني إلى أن أقدم إلى إخوتي في الشرق العربي هذا الكتاب، يتحدث عن الهند وعن إخوتهم فيها قدماً وحديثاً، ويتناول هذا الحديث نواحي شتى في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية، وعما أضافه المسلمون إلى ثروة الهند منذ دخولها وما أدخلوا عليها من إصلاحات وتجديدات في مختلف نواحي الحياة، وعما أنتجه المسلمون في الهند في العلوم الإسلامية وما زادوا إلى تراثها، ومن نهغ فيها من العلماء الكبار والمئات من العظام، وعن مظاهر نشاط المسلمين العلمي والديني، ومراكز الكبيرة في العصر الحاضر، وعن خصائص هذا الشعب وطبيعته وشخصيته وعن ماضيه وحاضره، وعن قضاياه الرئيسية ومشكلاته، عن أن يكون حلقة ظلت مفقودة زمناً طويلاً في سلسلة تنوير الرأي العام والترويد والمعلومات الصحيحة، وفني سبيل التعريف الإسلامي.

ويحملني على تقديم هذا الكتاب أيضاً أنا نلاحظ أن كثيراً من أفكار السياسة والثقافة ورجالات العالم الإسلامي والشرق العربي يزورون هذه البلاد كل عام ويقضون فيها ما شاء الله من الوقت، ولا يفهمون أن يتصلكوا بإخوتهم المسلمين الذين
أسهموا في بناء الحضارة والثقافة الإسلاميتين العربين بسخاء وجدارة - وأن يعرفوا أوضاعهم السياسية والثقافية والدينية وما يمثلونه أو يستطيعون أن يمثلوه من دور في حضارة هذه البلاد، وحضارة العالم، وما لهم من قضايا ومشكلات يعالجونها، كأنها بلاد كأوروبا واليابان - ليس فيها شعب مسلم، وينصرفون إلى بلادهم لا يعرفون عن الشعب الإسلامي في الهند إلا معلومات ضئيلة سطحية مبهرة، وقد يعرفون عن البوذيين والجيينين أكثر مما يعرفون عن المسلمين الذين يشاركونهم في العقيدة والثقافة والحضارة، والذين كانوا نائمة الهند الجديدة وصانعياها، والذين هم من أغني شعوب العالم علمياً وإنتاجاً وحكمًا وإدارة وآثاراً ومخلفات، ولا يزالون مصدر قوة وأمل.

إلى هؤلاء وأولئك جميعاً أقدم هذا الكتاب، وبالله التوفيق.

المجمع الإسلامي العالمي
ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)
أبو الحسن علي الحسني الندوي

سلطان ذي الحجة الحرام 1379 هـ
تقديم الكتاب
للأستاذ علي الطنطاوي - رحمه الله -

ماطلت الناشر بهذه المقدمة ثلاثين يوماً، أبتغي بها ساعة صفاء وإلهام، فلما ضاق الوقت، وبدأ الطبع، كتبتها على عجل في ثلاثين دقيقة.

كنت أريد أن أجعلها صفحات من الفن البارع الأصيل، فجاءت سطوراً من الدهن الخامد الكليل.

وكنت أريد أن أردعها خلاصة ذكرياتي عن الهند وأن أصب فيها كل ما في نفسي لأخي وسميي أبي الحسن، ولكنها صادفت أيام الانتخابات، التي جاءت بها هذه الثورة، وما تنايع عليّ من مشاغل ومشاكل، أرهقت جسدي، وأتعبت قلبي، وفرقت المُجمَّع من فكري، وأثقلت القلم في يدي، فحرون عليّ وقد كان العهد به أن يجري جريان فرس السباق، وكبا في أول
الحلبة، وقد كان (ولا فخر) سباقاً إلى الغاية، فعدت وكأنى من العيّ لم أسوّد به من قبل صحفية، ولم أخط به سطراً.
في أخي أبا الحسن، ويا إخوتي القراء، معذرة.
ويا رب غفراً.
ومثل أبي الحسن لا يحتاج إلى أن يقدم كتابه إلى القراء أحد، إن اسمه عليه يغني عن كل تنويع به، ولكنه أراد أن يولياني هذا الشرف، وأن يقرن اسم العلييّين معاً باسم المسلمين في الهند، دليلاً من الأدلة على أن الإسلام يجمع الأخوان، وإن تفرقت بهم البلدان، وإن كان هذا الأمر لا يحتاج إلى دليل.
ولقد كنت أعجب حين أقرأ لأبي الحسن، فأجد لرجل من الهند هذا الأسلوب البليغ، وهذه الأصالة وهذا الطبع، ثم زال العجب لما ظهر السبب، وعلمت أن أبا الحسن عربي صحيح صحيح النسب كالأصبهاني مؤلف الأغاني، والأبيوري الشاعر، وهما قرشيان أمويان، والفيروزأبادي صاحب القاموس، وإن خبر عريته متواتر مستفيض في الهند، فمن هنا جاء هذا البيان الذي قيلَ نظيره في هذه الأيام.
وقد يشتعل غرّ الغربي بعلوم العربية، حتى يكون إماماً فيها، في اللغة والنحو والصرف والاشتقاق، وفي سعة الرواية، بل إن أكثر علماء العربية كانوا (في الواقع) من غير
العرب ، ولكن من النادر أن يكون فيهم من له مثل هذا (الذوق الأدبي) الذي تعرفه لأبي الحسن. فلو لم تثبت عريته بصحة النسب ، لثبتت بأصالة الأدب.

وإن كان الدليل على ذوق الأديب اختياره ، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية ، لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام ، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة ، وكلهم من الأدباء ، يبحث ويفتش ، فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية ، وأجمعها لفنون القول وألوان البيان ، مختارات أبي الحسن.

ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه ، إلى فضاء الحرية ، وإلى ضياء النهار ، فلا تقتصر في الاختيار ، على (وصف الكتاب) للجاحظ ، وهو جمل مترادفة ، لا تؤلف بينها فكرة جامعة ، ولا يمدها روح ، ولا تخلطها حياة ، وعلى ألعيب ابن العميد ، وغلاطات الصاحب ، وهندسات الفاضل ، فتنفر التلاميذ من الأدب ، وتكرههم إليهم ، وكنا نقول لهم إن البيان الحق عند غير هؤلاء ، وأن أبا حيان التوحدي أكتب من الجاحظ ، وإن كان الجاحظ أوعش رواية ، وأكثر علماً ، وأشد تصرفاً في فنون القول ، وأكبر أستاذية ، وأن الحسن البصري
تقدم الكتب للأستاذ علي الطنطاوي

18

أبلغ منهما، وأن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري(1).

إن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في المقدمة، وابن الجوزي في الصيد، وابن هشام في السيرة، بل والشافعي في الأم، والسرخسي في المبسوط، أجد على التلميذ وأتلقع له في التأدب، من قراءة حمائق الصاحب، ومَّخرَقات الحريري وابن الأثير.

وكتبت في ذلك مراراً، فما انتفت إلى ذلك أحد، فثبت محلة، حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نقض كتاب الأدب والتاريخ نفضاً، وحرثها حرشاً، فاستخرج جواهرها، فأودعها كتابه.

ولست أقول أن أنا صاحب الفكرة، أو أنه أخذها مني. لا، ولعله (وهذا ما أرجحه) ما قرأ شيئًا مما كتبته أنا ولا غيري في هذا الموضوع، ولكنه الذوق الأدبي المرهف، والطبع العربي الأصيل.

وأبو الحسن أستاذ في فنون كثيرة، في الكتابة، وفي البحث، وفي التاريخ، وفي الدعوة، وفي الفقه والنزاهة.

(1) قد تبدو هذه الأحكام غريبة على من ألف التقليد في الأدب وعكف عليه، ولكنها حق، كما أن من الحق أن أبا تمام أشعر من المنتبي وأعظم.
تقديم الكتاب للأستاذ علي الطناوسي

والتعلق بأخلاقي العلماء، وهو فرع كرم من أصل كريم، أبوه
مؤرخ الإسلام في الهند، وأخوه من صدور الأطباء والعلماء،
وأسرته أسرة شرف وعلم، وهو أحد أركان ندوة العلماء، وإليها
نسبته. ندوة العلماء، أجل من أن نمر بها مرّاً، ولا بد من وقفة
عليها، لنعرف بها من لا يعرفها من القراء.

ولقد رحلت من سنوات رحلة قطعت فيها في الذهاب
والإياب أكثر من ثلاثين ألف كيل، مشيت فيها من دمشق إلى
سورابيا (في آخر جزيرة جاوة) ودخلت فيها كثيراً من المدن
الكبرى، فما رأيت في ذلك كله موضعًا متنينت من إعجابي به،
أن أقيم فيه، إلا مدرسة الندوة، في لينون.

وأما أدير لم تشبه لكنو بدمشق، وأحسنت وأنا فيها كأني
في بلدي، أمن أنهرها، وكثرة بساتينها، أم لأنني أحسست فيها
من كرم أبي الحسن كأني في موطني، وبين أهلي؟

ولقد كانت كلكته أول ما زرنا من بلاد الهند، مررتنا بها في
طريقنا إلى الشرق الأقصى، وفي عودتنا منه، وكلكتا مدينة
عظيمة، ربما كانت خامسة مدن الأرض، كثرة سكان، لأن فيها
كما قالوا خمسة آلاف ألف، وخمسين ألف، ولكنها بلدة كثيرة
قديمة، وخرجنا منها فقطعنا عرض الهند إلى بومباي، وبومباي
من أجمل بلاد الدنيا وأكبرها، لها ساحل مترعرج يدخل فيه البر
في البحر، والبحر في البر، فلا ترى إلا رأساً بارزاً أو خليجاً
والجأ، أو برزخاً معتراضاً، وعلى الساحل جبل قائم، يلبس حلة من غرائب الأشجار، وعلى ذروته حديقة معلقة ومقربة مغلقة هي إحدى عجائب الزمان لأنها تقوم من مجوس الفرس، لا يدفنون آماتها مثلنا ولا يحرقون كاهنودوس، بل يعرضونهم للطير والحيوانات تأكل لهم لهم حتى تذهب بها كلها.

وفي بومباي العمارات الكبيرة التي تجمع الجمال والجلال.

وقد رجعنا منها إلى دهلي، ودهلي مدينة عظيمة يحس من يدخلها أنه في بلدة إسلامية، من كثرة مساجدها وقبابها، وفيها المسجد الجامع، وهو من أعظم مساجد الأرض اليوم، وأمامه القلعة الحمراء، وهي درة من درر العمران على الأرض، بناها شاهجهان باني (تاج محل) أجمل أبنية الدنيا بلا جدال.

فما أحببت من ذلك كله بلداً، ولا من بلدان جاوا (جنة الأرض)، مثلما أحببت لكونو.

وكنا كلما دخلنا في رحلتنا بلداً، نجد من يستقبلنا فيه ويدلنا، وكنا نرقب أن نجد في (لكنو) من الرعاية والعناية، ما لم نجد في غيرها، لأنها بلد الصديق أبي الحسن، فنزلنا من الطيارة مطمئنين (وكنا اثنين أنا والأستاذ الدليل بركة العصر الشيخ أمجد الزهآوي شيخ علماء العراق)، فتلتَّفنا فلم نزل أحداً، فضاقت صدر الشيخ فطمأنته، وكان الركاب قليلاً، فتمت
تقديم الكتاب للأستاذ علي الطنجاوي

المعاملات في نصف ساعة، ورحانا إلى السيارة لتحملنا إلى البلد، وما رأيناك أبا الحسن ولا أحداً من جماعته، فغضب الشيخ وجرت أنا ماذا أصنع، لأنني لا أعرف (ولا الشيخ يعرف) كيف نخاطبهم، فعمدت إلى الإشارة وهي لسان من ليس له لسان، ولعبة الخرس جميعاً في كل عصر، وقرنُها بِها الكلمة التي تفهم في كل مكان كلمة (أوتيل)، ففهموا منها وأشاروا إلى السيارة.

واختارت السيارة البلدة، ثم خرجت منها، وصرنا بين البساتين فشككت وأعدت على جاري في السيارة كلمة (أوتيل) وقلبت كفي إشارة السؤال، فهَز رأسه ورُطَن بما لم آفهم، وأشار إلى قدم، ففهمت أن الفندق أمامي.

ووقفت السيارة في مكتب الشركة وكان في فندق فخم ضخم، من أفخم وأضخم ما رأيت من الفنادق، اسمه فندق كارلتون، وهله اجتهاد طويلة تظللها بواقع أشجار الهند، تقفز عليها القرون من كل نوع، تلعب وتتقلب وتخفف ما تصل إليه من الطعام، وهم لا يمسونها لأنهم يحرمون قتل الحيوان، تطل غرفه على بحر من الخضراء، فيه الأشجار الكبيرة المزهرة، التي لا نعرف مثلها في بلادنا، وكل غرفة منها بمقدار شقة من دار فيها الفلس الغالي والأثاث الثمين، وفي كل غرفة مرافقها كلها، فنزلنا فيه، ولكننا كنا فيه كالمسمجون ظلماً، لا نعرف.
ماذا نصنع، ولا ندري أين نتوجه، ولا نجد من نسأله عن أبي الحسن.

وهطلت الأمطار، لا كالأمطار التي نعرفها في بلادنا، ولكنها قرب تنصب، وسماء تفتح، فتضرع في دقائق، ما لا تضعه أمطارنا في ساعة، واستمرت إلى الليل، ثم وصلت الليل بالنهاير، والنهاير الثاني بالليل، والليل الثاني بالنهاير. وليست على ذلك ثلاثة أيام، ونحن محبوسون في قصر أنيق جميل المنظر، بارع البنيان، ولكنه كان علينا سجناً، والسجن لا يحب مهما كانت حاله، وضيق صدر الشيخ حتى فكر في السفر، ولم أجد بدأ من أن أذهب تحت هذا المطر، فأبحث عن مخرج.

وركبت سيارة أجرة وجدتها في الفندق. وقلت له: إلى ندوة العلماء، فلم يفهم عني، فقلت بمقدار ما أعرف من النظير الإنجليزي: إنني أريد مدرسة إسلامية، فلم أفلح في إفهامة، فأشارت إليه أن يمشي، فمشى وجعل يدور في الشوارع والعداد يسجل وهو يلفت إلى إشهار إليه أن يمشي، لعلي أرى من أتومس فيه أنه مسلم فاسأله، وقد كان ذاك، ووجدت شاباً وقفت السيارة وسألته، فأجابني، واسترشدته فأرشدني.

وأما قلت له: السلام عليكم، وقال عليك السلام ورحمة الله، وما علمت أنه مسلم، حتى شعرت بجمال ما يشعر به الغريق، وجد من يتشله من الماء، والمختنق وجد الهواء،
وفرح هو بي فرح الأخ يلقى أخاه بعد طول الغياب، وهذه هي أخوة الإسلام، التي عقدها الله، فلا تقوى على حلها يد بشري.
وحدثني أنهم كانوا يتوقعون قدومنا بالقطار، فكانوا يخرجون كل يوم إلى المحطة فإذا لم يجدونا رجعوا، ما توقعوا أن نجيء في الطيارة.
ومشي بي، في شارع رحب، على كف نهر عظيم، يقابله من هناك شارع آخر، وكانت الأمطار قد انقطعت فجأة كما هطلت فجأة، فنظرت، فإذا على الجانبين منظر من أمؤمن ما خلق الله، حتى انتهينا إلى أرض منبسطة خضراء، في وسطها بناء جميل، كأنه قصر من قصور الأشجار المزهرة والمثمرة، والسواقي الجارية، قال: هذه هي المدرسة ندوة العلماء، وتلك الأبنية تبع لها، وهذه الأرض كلها ملكها.
فدخلت فوجدت الأستاذ أبا الحسن، فلما رأيني، وتب هو وتلاميذه إيلي يسلمون علي ويكملوني، وكلهم يحسن العربية كلاماً وقراءة، حتى الصغار منهم، ولقد وجدت طفلاً اسمه عبد الحسن، لا يكاد يحسن اللسان بلسان قومه، وهو يحسن مع ذلك لسان القرآن، ولعله قد كبر الآن وغدا من طلبة العلم فبلغوه، وبلغوا الأستاذ أحمد الرابع دليلي في لكنو، سلامي.
وشعرت كأنى في مدرسة شرعية من مدارس دمشق، وتيقننت لما رأيت مناهج الدرس، وكتب الطلاب، أن القوم ماشون على
تقديم الكتاب للأستاذ علي الطنطاوي

الجادة، فليس عندهم تفرنج (جامعة عليكره) التي صارت
كواحدة من جامعات أوربة، وليس عندهم جمود (مدرسة
ديوند) وهي أزهر الهند، ولكنهم يأخذون بالتفاع من ثقافة
الغرب، مع الحفاظ على ثقافة الإسلام، كالدار القائمة على
السفح، ترفع عن وحامة السهل، وتنزل عن وعورة الجبل،
وخير الأمور الوسط.

وكتبت أقرأ أسماء هؤلاء الأعلام، سليمان الندوي أعلم
علماء السيرة في هذا العصر، وأحد أعظم المؤلفين فيها على
مدى العصور، ومسعود الندوي رحمه الله، وأبي الحسن
الندوي، وتماليمه، محمد الندوي، اجتهاد الندوي، فكتت
أظن أنهم أبناء أسرة واحدة، ثم علمت أنهم إنما ينسبون إلى
الندوة، وإنها هي أسرتهم وأن صلة العلم والأدب أقرب فيهم من
صلة القرابة والنسب.

* * *

عشت في الندوة أيامًا، ذقت فيها متعة النظر، بمنظر نهرها
وبساطينها، وراحة الأعصاب، وبهدوئها وسكونها، ولذا
التفكير، بالرجوع إلى مكتبتها، وعَبُضُ السعادة عباً بصحبة
هؤلاء الأخوة الكرام، المسلمين حقًا، الطيبين المخلصين،
الذين أحسست وأنا معهم كأني رجعت إلى التاريخ، فعشت مع
تقديم الكتاب للأستاذ علي الطنطاوي

المسلمين في الصدر الأول: أساتذة الدار وطلابها.

وقلت، هاهما المقابل، فيا ليتي أحظُ هاهنا الرجال، ويا ليتي أعيش هنا، وماذا أبتغي فوق ما أجد فيها؟ وهل بعد هذا المنظر الجميل، وهذه المكتبة الحافلة، وهؤلاء الصحاب الأخير، وهل بعد جوار أبي الحسن في بلده، متعة تبتغي أو نعمة تطلب؟

إن في الندوة لذات الدنيا، وحسن ثواب الآخرة إن شاء الله، والذين يعرفون أبا الحسن كثيرون، ولكنهم رأوه في سياحاته، فعرفوه من أدبه وكتبه ومحاضراته، أما أنا فعرفته في بلده فعرفت كيف يكون بر الصديق، وعطف الأخ، وكرم المضيف.

* * *

وأنا أكتب هذه المقدمة وأدفعها إلى المطبعة وما يعلم أبو الحسن ماذا أقول فيها، ولو اطلع عليها قبل نشرها، لما تركني أمدحه صادقاً بما هو فيه، لأن ما في طبعه من الحياه، يمنعه من قبول الشنا.

* * *

وبعد فأنا أكرر الاعتذار، فما هذا الذي كنت أتوب أن أقوله
ولكن هذه المقدمة جاءت كما قلت في أزمة شنتت فكري، فلم أقدر على أكثر من هذا الكلام المشتت.

ولا يضر أبا الحسن ألا تكون مقدمة كتابه العظيم، عظيمة مثله، وما ينعه وجودها، ولا يضره عدمها، ولكنه طلب فلم أملك إلا الإجابة.

ومن فاته أن يستمتع وينتفع بما كتب هنا، فسيجد المتعة كلها والنفع كله فيما كتب المؤلف في الكتاب.

دمشق، رجب سنة 1381 هـ.

علي الطنطاوي
دور المسلمين في حضارة الهند

سأتحدث في هذا المقال عما حمله المسلمون إلى هذه البلاد مع دخولهم كدعاة مشردين، أو غزاة مغاهدين، أو ملوك فاتحين، أو علماء محققين، من خيرات وحسنات وتحف وطرف، وعند بعض ما أضافوه إلى ثروتها الدينية والعلمية والخلقية والاجتماعية والصناعية والمدنية في عهدهم الطويل الجميل الزاهر.

دخل المسلمون في هذه البلاد حيناً بدافع ديني مجرد من كل مصلحة ومنفعة لتحملوا إلى أهلها رسالة الإسلام الرحيمة العادلة، وليخرجو الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، وليضعوا عليهم الإصرام والأغلال التي كانت عليهم، كما فعل أولئك الدعاء المخلصون الذين ارتمى في أحضانهم مئات ألواف من الأشقاء والمعذبين، وأحبوه أكثر من آبائهم وأولادهم كالسيد علي الهجوري، والشيخ معين الدين الأجميري، والسيد علي بن الشهاب الهمداني الكشميري.
ودخلوا حينا آخر كغزاة فاتحين، وملوك طامحين، كالسلطان محمود الغزنوي، وشهب الدين محمد الغوري، وظهير الدين بابر التيموري مثلاً، كانوا مؤسسي دولة عظيمة ازدهرت مدة طويلة، وخدمت البلاد، وتقدمت بها في نواحي الحياة المختلفة.

وكان كل من هؤلاء وأولئك مصمماً على الإقامة في البلاد، أو على الاتصال بها اتصالاً مباشرةً مستمراً، يعتقد أن الأرض الله يورثها من يشاء، وأن كل ما كان الله من أرض وبلاد فهو للمسلم، عن طريق الخلافة والوصاية العالمية التي كلف بها المسلمون، فكانوا ينظرون إلى هذه البلاد كوطن، ومدفن، ومسكن، لا يبغون عنها حولاً، فكانوا يخدمونها بكل ما أوتوه من ذكاء ونبوغ، وقوى وموهاب، وكانوا يعتقدون أن كل ما يضيفونه إلى ثروتها، إنما يضيفونه إلى ثروتهم، ويحسنون إلى أنفسهم وأجيالهم القادمة، لأنهم أهل البلاد وأمة المستقبل، فكان نظروهم إلى البلاد يختلف بطبيعة الحال عن نظر الأوربيين المستعمرين، الذين يجلبون خيراتها إلى بلادهم الخاصة، ويجلبون البلاد كبيرة مستعارة لا تقيم عنهم، ولا يجدون من بعد إليها سبيلاً، وذلك سر عناية المسلمين بهذه البلاد، وحرصهم على تقدمها ورفاهيتها.

دخل المسلمون في الهند وهي تعتر بحضارة أصيلة عريقة في
دور المسلمين في حضارة الهند

القدم، وفلسفة عميقة، وعلوم رياضية دقيقة، وخبرات عظيمة من حبوب وثمار وفواكه، ومواد خامة، ولكنها كانت على كل ذلك - تعيش منذ قرون في عزلة عن العالم، قد فصلت عن بقية الإنسانية الجبال في جانب، والبحار في جانب آخر، وكان آخر من دخلها من العالم المتمدن هو الإسكندر الكبير.

وهكذا انتظوت هذه الأمة العظيمة على نفسها، وعاشت قرونًا طويلة في عالم محدود محصور، لا تستورد شيئاً من الأفكار والدينات، والنظم والصناعات؛ ولا تصدر إليه شيئاً.

دخل المسلمون الهند وهم أرقى أمة في الشرق، بل في العالم المتمدن الممدوح في ذلك العهد، يحملون ديناً جديداً، سائغاً معقولاً، سهلاً سمحاً، وعلوماً اختُممت وتوسعت، وحضارة تهذبت ورق حاشفاً، يحملون معهم محصول عقول كبيرة كثيرة، ونتائج حضارات متنوعة ممتعددة، يجمعون بين سلامة ذو القلب العربي، ولفافة حسن الفرس، وفروسية الترك، وكانوا يحملون للهند وأهلها غرائب كثيرة وطرفاً غامضًا.

وكان أغرب ما كانوا يحملون في الدين، توحيد الإسلام النقي، الذي لا يرى الوساطة بين العبد وربه في العبادة والدعاء، ولا يعرف بالألهة والمظهر والظل، وحول الله جل وعلا، في بعض البشر وظهوره فيهم، ويؤمن بالإله الواحد.
الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، له الخلق والأمر، وله الكبرياء في السماوات والأرض. (K.M.Paikkar) وهو يقول الباحث الهندي المعروف يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي، ودياناته: من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندو كية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي)، أن فكرة عبادة الله في الهند ك، مدينة الإسلام، أن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله، وصرحوا بأن الإله واحد، وهو يستحق العبادة، ومنه تطلب النجاة والسعادة، وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة (Bhagti) ودعوة كبير داس (١١٩٨). أما في الاجتماع فكان أعجب ما حمله المسلمين معهم هي المساواة الإنسانية التي لم يكن للهند عهد بها، فلا نظام طبقات، ولا منبوذ، ولا نجس بالولادة، ولا جاهل يحرم عليه

(1) شاعر متصوف ينتقد المجتمع الهندي ويدعو إلى الإصلاح، اختالف الناس في ديانته.

A Survey of Indian History p.132 (2)
دور المسلمين في حضارة الهند

التعليم، ولا تقسيم أيد للحرف والصناعات، يعيشون معاً ويركزون جميعاً، ويتعلمون سواء، ويختارون ما يشاؤون من الحرف والصناعات، وقد كانت صدمة عنيفة للذين الهندي، والمجتمع الهندي، ولكن لا شك أنها أفادت الهند كثيراً، وطلعت من ضد النظام الطبقي السائد، وكان باعتيا قوياً على رد الفعل ضد النظام الطبقي، وحافزاً للدعاة إلى الإصلاح الاجتماعي، ونسخت اللمس المنبوذ.

وقد قرر هذه الحقيقة التاريخية جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند سابقاً إذ قال:

«إن دخول الغزاة الذين جاؤوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندي، إنه قد أظهر انقسام الطباق واللمس المنبوذ وحب الاعتزاز من العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويشجعون فيها، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عمياً، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤس الذي حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة، والتمتع بالحقوق الإنسانية».(1)

وأعاد الهندية الثالثة احترام المرأة والاعتراف بحقوقها.

---

(1) Discovery of India p.p.335-526
دور المسلمين في حضارة الهند

وكرامتها، كعضو محترم من أعضاء الأسرة الإنسانية وشقيقة الرجل، وعظمة هذه الهدية في بلاد كانت السيدات يحرصن أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن، ولا يرين ولا يرى المجتمع لهن حقاً في الحياة بعد الأزواج، أقول: إن عظمة هذه الهدية في مثل هذه البلاد واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

وقام الملوك ورجال الحكم المسلمون بدورهم في إصلاح الطقوس والعادات المتبعة في الهند، وخاصة إصلاح تقليد ما يسمى «ستي» وهو إحراق الأرملة نفسها أثناء عملية إحراق جثمان زوجها الميت، وذلك بدون أن يلحقوا بالمعتقدات الدينية والطقوس الهندية أي إساءة، أو اتهام حرة، فكتب الرحالة الشهير الدكتور برنير الذي زار الهند في عهد شاهجاهان:

«لقد هبط عدد حوادث «ستي» نسبياً، لأن المسلمين الذين يحكمون هذه البلاد يبذلون أقصى جهودهم للقضاء على هذا التقليد الوحشي، ولو أنهم لم يسعوا أي قانون لمنع هذه الحادثة من الوقوع، لأنهم لا يهدفون في نظام حكمهم إلى التدخل في شؤون الهندادك الدينية، بل إنهم يسعون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسوهم، ويوفرون لهم كل حرية، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد «ستي» بطرق غير مباشرة، فلا تستطيع أي امرأة أن تقدم نفسها لـ«ستي» إلا بإذن من حاكم الولاية، أما الحاكم فإنه لا يسمح لها به إلا إذا تأكد أنها لن تمنع عن عزمها...»
دور المسلمين في حضارة الهند

باي حال من الأحوال، ويسع حاكم الولاية إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها، وينفرها، ويوعدها، وينميها كذلك، وعندما تخفق هذه المحاولات، ولا تتم عملية الإقناع والوعيد يرسلها إلى حرمها، لكي تنضم إلى عقيلات الحرم، فتقلع عن إرادتها، بإقناعهن، ولكن رغم جميع هذه التدابير لا تزال حوادث «ستي» تحدث بكثرة، وخاصة في مناطق الرجالات، والأماكن الخاضعة لنفوذهم، حيث لا يحكم المسلمون(1).

نقل المسلمين إلى الهند علوماً جديدة كذلك، من أجلها وأتفعها - إذا تركنا العلوم الإسلامية التي لا تتوقع من الهند - علم التاريخ، فقد كانت البلاد فقيرة في التاريخ، ليس في مكتبتها كتاب تاريخ بالمعنى الصحيح، إنما هنالك صحف دينية أو ملاحم مقصورة على حرب، أو عهد، مثل «مهابهارات» أو «رامان» أما المسلمون فقد كونوا في التاريخ مكتبة هائلة من أوعس المكتبات التاريخية في العالم، ولنعرف في كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني، تخبر بما كان بهم من نشاط غريب، وإنتاج ضخم في تاريخ الهند، وفي تاريخ الأمم.

(1) رحلة الدكتور برنير، ج 2 ص 172.
دور المسلمين في حضارة الهند

قال غوستاف لوبون في «حضارة الهند»:

«لا يوجد تاريخ للهند القديمة، فلا تضم كتبهم حوادث تاريخية كلياً، وكذلك لا يمكن الوصول إلى نتيجة بدراسة أبنيةهم وآثارهم التاريخية، فإنها لا تلقى الضوء، لأنه لا يتجاوز عهد أقدم بناءاتهم للقرن الثالث قبل الميلاد، وعلاوة على بضعة كتب دينية دفنت فيها بعض حوادث تاريخية، كأساطير وقصص، يعثر جداً معرفة أحوال الهند القديمة، كما يعسر معرفة أحوال جزيرة «اتلانطس» الخيالية التي ذكرها أفلاطون أنها دمرت في انقلاب أرضي.

ثم قال بعد أن حدث أن وبدا، ورامائن، ومهابهارت، تلقى بعض الضوء على أحوال هذه البلاد:

فالفحص أن دور الهند التاريخي لم يبدأ إلا بعد المغازي الإسلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين».

وقد اكتسبت الهند من المسلمين بصفة عامة توسعًا في الخيال، وجدولة في التفكير، ومعانى جديدة في الأدب والشعر، ثم تكن تخطر على بال، لولا عملية التوليد العقلي والتلقيح الفكري والأدبي، وكان مما منح المسلمين الهند هذه اللغة الجميلة الواسعة التي أصبحت لغة التفاهم، ولغة العلم.
دور المسلمين في حضارة الهند

في الهند، التي عرفت بكثرة اللغات واللهجات، أعني لغة أردو.

وكان تأثير المسلمين في المدينة والصناعة وأساليب الحياة أبرز وأقوى منه في نواح أخرى، فقد أدخلوا في هذه البلاد حياة جديدة تختلف عن الحياة القديمة في هذا القطر، كما تختلف الحياة في أوروبا اليوم عن الحياة في القرن الوسطى.

وإذا أردنا أن نعرف ما أضافه المسلمون إلى ثروة هذه البلاد ومدينتها، يجب علينا أن نستعرض الهند وثروتها، ومدنها وحاصلياتها، ومرافقها ومستوى المعيشة فيها قبل أن يمكن المسلمين من بناء مدينة جديدة، وإقامة حضارة هندية إسلامية، وإتحاف هذه البلاد بما عرفوه وألفوه من مرافق الحياة ورقائق المدنية، وقد ترك لنا مؤسس الدولة المغولية العظمى ظهير الدين محمد بابر (888 - 939 هـ) صورة واضحة عن مدينة الهند، وثروتها الطبيعية والصناعية، والمستوى الذي كانت عليه هذه البلاد عند غزوها لها، ولا يخفى أن اليد الإسلامية الصناع الحاذقة ظلت تشتعل مدة قبل الهجوم المغولي، يقول بابر في مذكراته:

1) كتبها بابر في اللغة التركية في أسولب أبي رفيق، ونقلها إلى الفارسية الأديب التركي والشاعر الكبير قائد قواد الدولة المغولية.
لا وجود للخيل العتاق، ولا يوجد من الفواكه العنب والبطيخ، والأ透明 الطيبة، الثلج مفقود، والماء البارد قليل نادر، والحمام لا يوجد، والمدارس لا يعرفها أهل الهند، والمشكوات والشموع لا يوجد لها، وكذلك الفوانيس، ويعملون مكانًا خشبة ذات ثلاثة أرجل تحمل إحدى أرجلها حديدة مركبة بها، وفي الرجل الثانية فتيلة ضعيفة، وفي يدها اليمنى قرع (دباء) له ثقب صغير ينزل منه الزيت على الفتيلة، وبهذه المشكاة الوسخة يستعين الملوك والأمراء عند الحاجة في الليل.

أما الحدائق والأبنية فلا توجد فيها عيون متدفقة ومياه جارية، ولا تتمتع هذه الأبنية بالنظافة والجواء والتناسب، وأكثر أفراد الشعب يمشون حفاة ويسكنون بغرقة، والنساء يتزرن بالإزار يلقين طرفًا منه على الرأس (1).

ومعقولًا على ما سجله المؤسس الكبير لأعظم حكومة في الهند من ملاحظات وانطباعات عن هذه البلاد، يقول جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه (Discovery of India):

"من خلال التاريخ الذي ألفه بابر، نرى فقر الحضارة الذي

الأمير عبد الرحيم بيرم خان، وطعته في بمبئي (الهند).

(1) "توزك بابري" مذكرات ظهير الدين بابر، الترجمة الفارسية."
كان مسيطرًا على الهند الشمالية، ومرجع ذلك التدهور الذي كان نتيجة هجوم تيمور، وبسبب أن كثيرًا من العلماء والفنانين والصناع نزحوا من شمال الهند إلى جنوبها، ومن أسباب هذا الانحطاط أن منابع الإبداع والابتكار في أهل الهند قد نضبت، يقول بابر: "إن البلاد ليست فقيرة في وجود الصناع الحاذقين، ولكن اختراعات أهل الهند تخلو من الذى والفتانة" إن سقوط الحضارة الهندية في شمال الهند واضح لا خفاء فيه، إن العقائد المرسومة والمجتمع المتزمن قد منعها عن الإصلاح الاجتماعي والتقدم).

كانت البلاد - رغم خصبها وغناها - قليلة الفواكه والثمار، وأكثرها برية لم تلق العناية اللازمة، حتى جاء المغول وهم أصحاب ذوق رائع، وأبناء بلاد كثيرة الفواكه والأشجار، فأدخلوا عليها ثمارًا جديدة وفواكه كثيرة، يعرفها المستنصر من كتاب "توزك بابري" و"توزك جهانكيري" وقاموا بعملية التلقيح والتهذيب لبعض الثمار الهندية، حتى جاء أشهى وأذى وألفت، كما كان الشأن مع "المانجو" أشهر فواكه الهند وألذها وأفضلها، فلم يكن يوجد منه إلا ما نبت بالبذر، فلقحوه حتى جاء ما يسمونه في الهند "قلمي" وكان منه أنواع في العهد الأخير، لعلها تزيد على مئة نوع.

(1) (Discovery of India) الجزء الأول ص 510
كذلك كان إنتاجهم عظيماً في صناعة القماش والمنسوجات وقد كان أغلب لباس أهل الهند الكرباس والقطن الثخين العادي والصوف الخام.

وقد أنشأ ملك كجرات السلطان محمود بن محمد الكجراطي المشهور باسم محمود بيكره (م 917 هـ) مصانع كثيرة للنسج والوشي والتطريز والنحت، ومصنوعات العاج والمنسوجات الحريرية، وصناعة الورق، وقد كان السلطان محمود هذا ملكاً عمرانياً كبيراً، أحدث نشاطاً صناعياً وزراعياً وتجاريًا منقطع النظر في تاريخ ذلك العصر، يقول مؤرخ الهند العلامة السيد عبد الحي الحسني في ترجمته في "نزهة الخواطر":

"ومن مكارمه قيامه بتحمير البلاد وتأسيس المساجد والمدارس والخوناق، وتكثير الزراعة، وعرف الأشجار المشمرة، وإنشاء الحدائق والبساتين، وتحريض الناس على ذلك، وإعانتهم بحفر الآبار وإجراء العيون، ولذلك أقبل عليه الناس إقبالاً كلياً، ووفد عليه البناؤون والمعمارون وأهل الحرف والصناع من بلاد العجم، فقاموا بحرفهم وصناعتهم، فصارت كجرات رياضًا مخضرة بكثرة الحيوان والأبار والحدائق والزروع والفواكه الطيبة، وصارت بلاد كجرات متجرة تجلب منها الثياب الرفيعة إلى بلاد أخرى، وذلك كله لمثل سلطانها ..."
دور المسلمين في حضارة الهند

محمود شاه إلى ما يصلح به الملك والدولة ويتزلف به رعاياه\(^1\).

وكذلك فعل "أكبر" وأنشأ معامل كبيرة للنسيج، وقد كانت لهم إصلاحات دقيقة عظيمة التأثير في تعين الضرائب على حسب الأراضي، ومساحة العقارات والمزارع وتنظيمها وتشريعات مضبوطة، وتنظيم المالية وإصلاح نظام النقود، لم يكن للحكومات الهندية السابقة عهد بها، فقد كان لشير شاه السوري الملك المقنين والإداري العبقري فضل التقدم والابتكار، وبعه "أكبر".

وكذلك كان للحكومات الإسلامية فضل في تربية الحيوانات واقتنائها، وترقيها نسلها وتربية أجسادها، يظهر ذلك في مذكرات جهانكير "توزك جهانكيرى" وكتب التاريخ مثل "آتين أكبرى".

أما تأسيس المستشفيات (المارستانات) ودور العجزة، والحدائق العامة والمنتزهات، والترع الكبيرة والبرك العظيمة، فقد كان من محاصل الدول الإسلامية التي لم تسبق إليها، وفي كتاب "جنة المشرق" وهي "خطط الهند"\(^2\) للعلامة عبد الحي.

---

\(^1\) "نزهة الخواطر" الجزء الرابع، ترجمة السلطان محمود بن محمد الكجي، ص 345.

\(^2\) طبع الكتاب باسم "الهند في العهد الإسلامي"، (لأنه أدل على =
الحسيني قائمة طويلة بأسماء المستشفيات والمؤسسات الخيرية، والمشاركين المدينة التي نشأت في عصور الدول الإسلامية المختلفة.

وكذلك الشوارع الطويلة التي تجمع بين شرق الهند وغربها، وتتمد على طول الهند وعرضها، كانت من إنشاء الملوك المسلمين، اشتهر منها الشارع الطويل الذي أنشأه شهاب السوري من سنار كاؤن أقصى بلاد بنغال (في باكستان الشرقية) (1) إلى ماء نيلاب من أرض السند (في باكستان الغربية) مساحته اثنتان وثلاثون وثمانمائة وأربعة آلاف (4832 كم) وأسس في كل ثلاثة كيلو مترات رباطاً، ورتب هناك مواقع، مئذنة للمسلمين ومائدة للهنادك، وأسس مسجداً على كل ثلاثة كيلو مترات، ووظف مؤذناً ومقرئاً وإماماً في كل مسجد، وعين في كل رباط فرسين للبريد، فكان يرفع إليه أخبار نيلاب إلى أقصى بلاد بنغال كل يوم، وغرس الأشجار المثمرة بجانبي الشارع ليستظل بها المسافر ويأكل منها.

وعلاوة على ذلك فقد كان مما أدخله المسلمون ونقلوه من الخارج إلى الهند: النظافة الزائدة، والأناقة في كل شيء، ( موضوع الكتاب) من دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد.

(1) بنغلاديش حالياً.
دور المسلمين في حضارة الهند

والظرافة في المأكل والمشرب، والبناء والاجتماع، والاحتفاظ
بأصول الصحة، وتهوية البيوت وتنويرها، والتأنق في
الأواني، فقد كان أهل الهند - ولا يزال كثير منهم يأكلون على
أوراق الشجر، خصوصاً في الولائم الكبيرة، وقد أحدث
المسلمون انقلاباً عظيماً في المجتمع، وفي الحياة المنزلية،
وفي نظام تأثيث البيوت.

وكذلك أدخلوا فناً معمارياً جديداً يمتاز بالمتنانة والدقة،
والروقة والجمال والتناسب، والفسخامة، والتهوية والتنوير،
ولا يزال "تاج محل" آية في الهندسة والبناء، وذكرى عهد
المسلمين الزاهر، ودليلًا ناطقاً على ما بلغوا إليه من رقة الذوق
ولطافة الحس، والإبداع في الفن.

وقد اعترف جواهر لال نهرو في كتابه "العثور على الهند" (Discovery of India)
بتأثير المسلمين الواسع العميق في العقلية الهندية وفي المجتمع الهندي، وتأثيرهم في حضارة هذه
البلاد، يقول:

"إن دخول الإسلام والشعوب المختلفة في الهند التي حملت
معها أفكاراً طريفة وأساليب مختلفة للحياة، قد أثرت في
عقيدتها وأثرت في هيئةها الاجتماعية، إن الفتح الأجنبي - على
علاته وما فيه من مساوئ - لا يخلو من فائدة، وهي أنه يوسع
دور المسلمين في حضارة الهند

أفق الشعب المفتوح الفكري، ويضطره إلى الخروج من الحصار الفكري الذي أقامه حوله، وبذلك يبدأ أفراده يفهمون أن الدنيا أوسع وأكثر اختلافاً وتنوعاً مما كانوا يتصورون ويعتقدون، وهكذا أثر الفتح الأفغاني في الهند، وظهرت تطورات كثيرة في حياتها، وكانت هذه التطورات أكثر وأعمق بعد دخول المهمل في الهند، لأنهم كانوا أكثر ثقافة وأرقي من الأفغان، وقد نشروا في الهند الأناقة التي كانت من خصائص إيران(1).

وقد اعترف بذلك أحد قادة حركة التحرير في الهند ورئيس المؤتمر الوطني سابقاً (Pattabhai Sita Ramayya) في خطبه التي ألقاه في حفلة المؤتمر الوطني الهندي في «جي بور» فقال:

«إن المسلمين أغنوا ثقافتنا، إنهم قروا إرادتنا، وقربوا أجزاء البلاد البعيدة بعضها إلى بعض، لقد كان تأثيرهم عميقاً في أدياب البلاد وحياتها الاجتماعية»(2).

الخدمات الطبية:

وكان من فضل المسلمين وحكوماتهم المتتالية على الهند أن نالت هذه البلاد المكانة المرموقة في العالم المتقدم والراقي، فجنت البلاد فوائد كثيرة في مجال العلم والطبيعة، منها ذلك (3).

(1) الجزء الأول ص 511 (Discovery of India).
(2) خطبة المؤتمر الهندي الوطني.
الدورة العربية والمعالجة الذي كان أرقى نظام للطب في ذلك العصر قبل انتشار الطب الجديد، وكان هذا الطب الذي كان منظماً ومداناً واسع الانتشار في معظم أنحاء العالم يعرف بالطب اليوناني، ولكن يصبح أن يسمى باسم "الطب العربي" وكانت إيران والعراق وتركستان في عهود مبكرة من مراكز هذا العلم، وهي التي أنجبت أعلاماً في هذا العلم، ونوابغه في القرون الوسطى، وذبنت الهند أفواجاً من رجالات هذا العلم وحاملي لوائه، حين انتهت إليه روايات التشجيع المادي الذي كان يناله العلماء ورجال الفن من البلاط العربي، وبدأ هذا الاتجاه في القرن السابع للهجرة، واستمر إلى القرن الثاني عشر تقريباً، فوصل هذا الفن ذروته وكماله في الهند بفضل جهود الحكمة المجتهدين في الفن، والضيوف الحذاق، وتلامذتهم الراسخين في العلم، والأطباء العباقة وانهاكمهم العميق وعوفهم على خدمة فنهم، وسمة خدمة الخلق فيهم، فإنكمش أمام العلم سائر طرق العلاج القديمة، ولم يخل بلد ولا قرية من الأطباء اليونانيين.

وقد كان هذا الطب رخيصاً كذلك كما كان ميسراً في متناول يد الجميع وملائماً لطقس الهند ومناخها وطبيعة الهند، وكان مع ذلك أرقى طريقة لعلاج في ذلك العصر وأوسعها، فنال قبولًا عاماً في مدة بسيرة، وانتشار بسرعة، فتأتي خدمة جميلة
دور المسلمين في حضارة الهند

وإسعافاً طبيعاً ذا قيمة كبيرة بالنسبة لسكان هذه البلاد الذين كان يغلب عليهم الفقر وقلة الوسائل بصفة عامة١ ، وقد استضاف أطباء الهند في الفن ونوعوه ووسعوه ، وكانت دلهي ولكهنؤ مرکزين رئیسین في آخر العهد الإسلامی ، وأصبحت الهند الآن المركز الوحيد لهذا الطب ، ويرجع إليها فضل بقائه ووجوده.

يقول الدكتور هنتر الذي يعتبر من كبار الحاقدین على الشعب الإسلامي الهندي وعواطفه الإسلامیة:

» إن المسلمين قد أنشؤوا مستعمرات في جنوب الهند ، الأراضی التي أحبها وعمروها ، وإذا قيض لسائح أن يتجول في هذه المنطقة استرعى انتباهه البرك التي يستّن بها الزرع ، والمساجد والرتباطات والأحواض والزوايا التي أنشؤها في غابات موحشة لم يكن بها عمران.

وقد ظل المسلمون ينشرون دينهم نادراً بالسيف وغالباً بتأثير عاطفي قويتين أندادك أن الهنادک لم يستمحو للشعوب القديمة التي كانت تسكن عند منبع النهر بالدخول في مجتمعهم ، أما المسلمون فقد قدموا جميع الحقوق الإنسانية لطبقة البراحمة والمنبوذین سواء سواء ، إن هؤلاء الدعاء المتحمسین أعلنوا في

(1) راجع كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" للتفصيل في الموضوع ، ومعرفة أسماء الأطباء المشهورين وخدماتهم.
كل مكان أن كل واحد يجب عليه أن يخضع لله الواحد العلي،
وأن البشر كلهم سواء عنده، لا فضل لأحد على آخر إلا
بالقوى، وأن الله قد خلقهم كذرات التراب"(1). 

وقد ذكر مؤرخ الهند الكبير المشهور بمؤلفاته السائرة وكتبه
المقررة في الجامعات "جادو ناتها سركار" في مقالاته بالإنجليزية
التي ظهرت في مجلة كلكته "الهند الواعية" بعنوان "الإسلام في
الهند" عشرة من هبات الإسلام لشعب الهند، منها ما تقدم في
مقالان والذي زاده هذا المؤرخ الكبير وذكره هنا: الأولى: صلة
الهند بالعالم الخارجي. والثانية: وجود الوحدة السياسية
والوحدة في اللباس والحضارة خصوصاً في الطبقات الراوية.
والتين: وجود لغة رسمية إدارية وأسلوب من النثر الفني الذي
ساهم في تهذيبه وترقيته المسلمين والهنود. والرابعة: تقدم
لغات إقليمية في ظل الحكومة المركزية لوجود السلام والرفاهية
في البلاد، وازدهار أدابها وانتشارها. والخامسة: تجديد التجارة
عن طريق البحار التي كانت توقفت وقتقدت منذ مدة طويلة،
والتي كان يقوم بها أهل الجنوب في الزمن القديم. والستوسة:
إنشاء بحرية للهند.

ونختم هذه المقالة الوجيزة بكلمة لكاتب عصري فاضل وهو

(W.W. Hunter our India Muslims) (1)

(1) مسلمو الهند
دور المسلمين في حضارة الهند

Indian Civilization and N.C. Mehta I.C.S.

الحضارة الهندية والإسلام: «Islam

«إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلًا من نور قد انجلت به
الظلمات التي كانت تغشي الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه
المدنية القديمة إلى الانحطاط والتدلي، وأصبحت الغابات
الفاضلة معتقدات فكرية، لقد كانت فتح الإسلام في عالم
الأفكار أوسط وأعظم منها في حقل السياسة، شأنه في الأقطار
الأخرى، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا
القطر مرتبطًا بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب،
وبقيت هباته وأياديه الجميلة مخفية عن الأنظار».

***
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

وعنايتهم باللغة العربية

كان المسلمون في الهند أوفياء لوطنهم، لا يتشاغلون عن خدمته والتقدم به في ميادين العلم والصناعة والمدنية، أوفياء لدينهم وثقافتهم الإسلامية العربية، لا يتخلفون عن ركبتها ولا ينقطعون عنها، وقد نراه في بعض فترات التاريخ في مقدمة القافلة ومأخذ الزمام.

(1) اقتصرنا في هذا الفصل على الحديث عن أهم المؤلفات التي ألفت في الهند قبل التقسيم وما ألفت في الهند خاصة بعد التقسيم، ولم نتعرض لذكر المؤلفات التي ألفت ونشرت في باكستان والتي تستحق أن ينوه بها بعد قيام باكستان لأن معلوماتنا عنها محدودة، وفي باكستان من العلماء والكتاب من يستطيع أن يضطلع بعملية التعريف والإشادة والثنويه، وأهل البيت أدرى بما فيه.
إن الجمع بين الثقافتين اللتين تتناقضان كثيراً وقليلين قليلاً، وإن الوفاء لوطنيين - مادي وروحي - مهمة عسيرة، لا نعرف شعباً من شعوب الإسلام كلف نفسه بها ثم نجح نجاح مسلمي الهند.

إن مؤلفات المسلمين في الهند في العلوم الإسلامية لا تحصى كثرة، وذلك موضوع كتاب كبير ككتاب الفهرست لابن النديم، أو كشف الظنون للجلبي، وجولة في كتاب الثقافة الإسلامية في الهند تدل على مركز الهند العلمي وقسط علمائها ومؤلفيها في حركة التأليف والنشر، وأقتصر هنا على الكتب التي تخطت شهرتها الهند وسارت بها الركبان، واحتفى بها علماء الغرب، وأخص منها أولاً ما ألف باللغة العربية.

من هذه الكتب العالمية، كتاب «العباب الزاخر» للإمام حسن بن محمد الصغاني اللاهوري، من رجال القرن السابع الهجري، الذي عد من مراجع اللغة العربية، وغور كتبها، وقد اعتنى بها أئمة اللغة قديماً وحديثاً، واعترفوا له بالدقة والإتقان وغزارة المادة، واعترفوا لصاحبه بالفضل والإمامة في هذا الشأن، قال السيوطي: إنه كان حامل لواء اللغة، وقال الذهبي: إن إليه المنتهى في اللغة، وقال الدمياطي: إنه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث، وكذلك كتابه «مشارق الأنوار» في الحديث...
من الكتب المشهورة المقبولة في العالم الإسلامي، وقد ظل مدة طويلة من كتب التدريس.

ومنها "كنز العمال" (1) للشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهانفوري (م 975 هـ) وهو ترتيب "جمع الجوامع" للسويطي (2)، وهو من الكتب التي انتفع بها علماء الحديث كثيراً، واعترفوا لصاحبه بجهود عظيم وفر عليهم وقتاً كيراً وأغناهم عن مراجعات كثيرة، قال الشيخ أبو الحسن البكري الشافعي من أئمة العلم في الحجاز في القرن العاشر: "إن السويطي من على العالمين وللمتقي من عليه".

ومنها كتاب "مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار" للشيخ محمد طاهر الفني (3) (م 982 هـ) قال العالمة

(1) قد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في داررة المعارف العثمانية.
(2) إن "جمع الجوامع" أوفي مجموعة للأحاديث والروايات، وحزانة كبيرة لها، ولم يراع المؤلف في هذا الكتاب أي ترتيب فقهي أو معنوي، فإذا كان الحديث قليلاً فلا بد في البحث عنه من رعاية الكلمات البدائية، وإذا كان فعلياً فلا بد لمعرفته من معرفة اسم الراوي، وقد رتب العالمة علي المتقي ذلك باعتبار الأبواب والفصول، وجعله أوسع فائدة وأعمها.
(3) "فتن": تقع في كجزء، ولا تزال بلدة عامرة، تقع على بعد=
السيد عبد الحليم الحسن في "نزهة الخواطر": جمع فيه المؤلف كل غريب الحديث وما ألف فيه، فجاء كالشرح للصحاب الستة، وهو كتاب متفق عليه قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوسط، وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم، وكذلك كتابه "تذكرة الموضوعات" من الكتب السائرة المتداولة في الموضوع.

ومنها "الفتاوى الهندية" التي تعتبر من المراجع الفقهية الكبرى التي عليها العمد في كثير من الأقطار الإسلامية التي تحكم بالفقه الحنفي، يقول صاحب "الثقافة الإسلامية في الهند":

"أما الفتاوى العالمية ويسمونها الفتاوى الهندية فهي من أجلها وأنفعها (أجل الفتاوى والمجامع) في كثرة المسائل وسهولة العبارة، وحل العقد، وهي التي اشتهرت في بلاد العرب والشام ومصر القاهرة بالفتاوى الهندية، وهي في ستة مجلدات كبار رتبها على ترتيب البداية، واقتصرنا فيها على 68 ميلاً من "أحمد آباد" في شمال غربها، وتذكر في كتب التاريخ القديمة باسم "انهلوارد" وبالعربية تذكر باسم "نهزولانه"، وكانت عاصمة ذات نفوذ كبير لحكومة قوية في القرن الخامس الهجري للكجرات، فتحها السلطان محمود الغزنوي في عام 416 هـ، وفتحها السلطان قطب الدين أبık من جديد في عام 592 هـ."
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

ظاهر الرواية، ولم يلتفتوا إلى النواضر إلا إذا لم يجدوا جواب المسألة في ظاهر الرواية، أو وجدوا جواب النواضر موسومًا بعلامة الفتوى، ونقلوا كل عبارة معروة إلى كتابه ولم يغيروا إلا لداني الضرورة، وقد ولى السلطان أورنك زيب عالمٍ كبير التيميوري (أناار الله برهانه) الشيخ نظام الدين البرهانفوري، في أوائل سلطنته تدوينها باستخدام الفقهاء الحنيفية، وبذل على تدوينها مئتي ألف روبية(1).

وقد ذكر المؤلف أربعة وعشرين رجلاً من كبار علماء الهند في ذلك العصر ساهموا في تدوينها، وكان أربعة منهم هم القاضي محمد حسين الجونفري المحتبس، والشيخ علي أكبر الحسيني أسد الله خاني، والشيخ حامد بن أبي الحامد الجونفري، والمفتي محمد أكرم الحنفي اللاهوري، قد تولوا أرباعها، لكل واحد منهم الإشراف على ربع الكتاب.

ومنها كتاب «مسلم الثبوت» في أصول الفقه للعلامة محب الله بن عبد الشكور الحنفي البهاري المتوفى (1119 هـ) وقد رزق القبول العظيم في الأوساط العلمية المدرسية في الهند وبلاد الإسلام، وتناوله كبار العلماء في عصورهم بالتدريس والشرح.

(1) مئتي ألف روبية هندية تساوي نحو خمسة عشر ألفًا (15000 من الجنيهات) وقيمتها في هذا العصر أكثر من مئة ألف جنيه.
وكانت له عشرة شروح لكتاب الأستاذة الفضلاء في الهند. ومنها كتاب "كشف اصطلاحات الفنون" لشیخ محمد أعلى الیاهوی من رجال القرن الثانی عشر، وهو كتاب عظیم النفع، تلقاه المشتغلون بالعلم في بلاد العرب بالقبول، وأثنا عليه، لأنه كمعجم للمصطلحات العلمیة يغیة عن مراجعة آلاف من الصفحات ومئات من الكتب، وهذا موضوع لم يكن فيه كتاب كبير على شدة الحاجة إليه، ولا يزال المرجع الوحيد للفضلاء والمؤلفين والباحثین في هذا الشأن.

وفي هذا الموضوع كتاب آخر وهو "جامع العلوم" المشهور بديستور العلماء في أربعة مجلدات للشیخ عبد النبی بن عبد الرسول الأحمد نكیری من رجال القرن الثانی عشر أيضاً، ومنها بل من أعظمها كتاب "حجة الله بالغة" للإمام ولي الله الظهوری (م 176 هـ) في أسرار أحكام الشریعة وفلسفة التشريع الإسلامي وهو كتاب مبتكر في موضوعه لا يوجد له نظیر في المكتبة العربية على سعتها، وقد ألقه علماء هذا الموضوع وأعيد طبعه في مصر مراراً.

ومما يجب الإشارة إليه أن هذا الكتاب يتسم بنضاعة العربية

(1) اقرأ مزايا وخلاصة ما جاء فيه في كتاب المؤلف "الإمام الظهوری", في سلسلة "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" طبع دار ابن كثير دمشق.
وقوة العبارة وانسجامها وبعدها عن السجع البارد وتقليد أسلوب الحريري الذي كان متفشياً في عصره ومصره، وقلما نجا منه مؤلف وكاتب في القرون الأخيرة، وهو يعد بحق المثال الثاني للثر الطبيعي السلسل والتعبير العلمي العامер بعد مقدمة ابن خلدون في عصور انحطاط العربية وغلبة الجماهير والصناعة على الكتاب والمصنعين في العالم الإسلامي.

ومنها كتاب "تايج العروس في شرح القاموس" للسيد مرتضى بن محمد البلكريدي المشهور بالزبيدي (م 1305 هـ) الذي هو أشهر من أن يعرف، وهو مكتبة لغوية علمية عظيمة في عشرة مجلدات كبار، وقد اشتهر أمر هذا الكتاب في حياة صاحبه فاستكتب منه الخليفة العثماني نسخة، وسلطان دارفور نسخة، وملك المغرب نسخة، وطلب منه أمير اللواء محمد بيك أبو الذهب نسخة وجعلها في مكتبة مسجد الذي أنشأه بالقرب من الأزهر، وبذل في تحصيله ألف ريال.

ودى نجم في الهند في القرن الرابع عشر الهجري مؤلفون فاقوا في العالم الإسلامي كله في سرعة التأليف وكثرته المؤلفات ووضخامة الإنتاج، وكان كل واحد منهم مجمعاً علمياً نشطاً، وقد قام بعضهم شخصياً بما لا تقوم به مجامع علمية في أكثر الأحيان، فالامير صديق حسن بن أولاد حسن التنوجي أمير بهوالي (م 1307 هـ) يبلغ عدد مؤلفاته اثنتين وعشرين ومثني كتاب.
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

(226) منها ستة وخمسون (57) كتاباً في اللغة العربية، وفيها كتب كبار ذات قيمة علمية، منها "فتح البيان في مقاصد القرآن" في عشرة مجلدات، كبار، وأبرجد العلوم، والتأليف المكمل، والبلغة في أصول اللغة، والعلم الخلفاء من علم الاشتتقاق.

ويبلغ عدد مؤلفات علامة الهند فخر المتاريخين الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوئي (م 1304 هـ) مئة وعشرة كتب (110) منها ستة وثمانون (86) كتاباً بالعربية، من أشهرها وأجملها "السعاية في شرح شرح الوقاية" و"مصابح الدجى" و"التعليق الممجد" و"ظفر الأماني"، ولا يزال كتابه "الفوائد البهية" عمدة المؤلفين في ترجم علماء المذهب الحنفي ومرجعهم الكبير.

ويبلغ عدد مؤلفات المصلح الكبير والمربي الشهير مولانا أشرف علي التهانوي (م 1367 هـ) تسعة مئة وعشرة (910) منها الصغير، والكبير، منها ثلاثة عشر كتاباً بالعربية.

وللعلامة محمود حسن خان التونكي (م 1366 هـ - 1947م)
كتاب عظيم سماه "معجم المصنفين" هو كثيرة معرف في هذا الموضوع في نحو ستين مجلداً، تحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات وعلى ترجم أربعين ألفاً من المصنفين، وناهيك من سعة الكتاب واستقصائه أن فيه ترجم ألفين من المؤلفين كلهم يسمون أحمد، وقد لخص في كتابه نحو ألف وخمسين من
الكتب، وذكر كل من ترك بالعربية كتاباً منذ بدأ العهد التأليفي إلى سنة 1350 هـ وظهرت منه أربعة أجزاء، فقط طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر أباد.

ومن كبار مؤلفي هذا العصر وكتابه العلامة الدكتور السيد سليمان الندوي (م 1372 هـ) الذي خلف مكتبة كبيرة من مؤلفاته في السيرة النبوية والشريعة الإسلامية والتاريخ والأدب، ومجموع ما طبع يبلغ نحو ستة آلاف صفحة غير مقالاته وشذراته التي يكتبها في مجلة "معارف" التي تعتبر أرقى مجلة علمية في الهند، وأوجيهه وفتاواها العلمية، وهو يستحق أن يعد من كبار المؤلفين في الهند والمحققين الباحثين في الشرق.

ومن كبار المؤلفين أيضاً الذين عرفوا بالاقتدار على التأليف وسيلان القلم وغزارة المادة وسرعة المعلومات، العلامة مناظر أحسن الكيلاني (م 1375 هـ) صاحب "النبي الخاتم" و"تدوين الحديث" و"نظام الإسلام الاقتصادي" و"نظام التعليم والتربية" وغيرها، وقد خلف مكتبة عامة من مؤلفاته.

وقد عرف علماء الهند بشغفهم بالعلوم الدينية وانتهت إليه رئاسة التدريس والتأليف في فنون الحديث وشرح مثونه ومجامعه، وسلمت زعامتهم في هذا الموضوع في العهد الأخير حتى قال العلامة السيد رشيد رضا مشيء مجلة "المتنا" في مقدمة "مفتاح كنز السنة":...
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة.

ولعلماء الهند في هذا العصر مؤلفات جليلة في فنون الحديث وشرح لأماني كتبها تلفقا العلماء بالقول، منها "عون المعبد في شرح سنن أبي داود" للشيخ محمد أشرف الدياني (1)، و"بذل المجهود في شرح سنن أبي داود" (2) للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، و"تحفة الأحاديث في شرح سنن الترمذي" للعلامة عبد الرحمن المباركفوري، وفتح الملهم في شرح

(1) ألف هذا الكتاب بتوجيه وإرشاد المحدث العالم الكبير لولاية "بهار" الهندية الشيخ شمس الحق الدياني أحد كبار تلامذة العلامة نذير حسين المحدث الدهلوي، وكان الشيخ قد بدأ أولاً بشرح سنن أبي داود شرحًا بسيطًا مطولاً باسم "غاية المقصود" ولكنه لم يكمل الشرح فلم ينشر إلا الجزء الأول منه، ثم أكمله تلميه الشيخ محمد أشرف بإشارة منه فيما بعد.

(2) طبع هذا الكتاب أولاً على الحجر في سهارنفور وفي سنة 1342 هـ ثم أعيد طبعه في مطبعة ندوة العلماء وفي مصر سنة 1392 هـ بعد أن نظر فيه تلميذ المؤلف الحاجة ومساعده في التأليف المحدث العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

صحيح مسلم» للشيخ شبير أحمد الدیوبندي ولم يكمل،
وأوجز المسالك إلى شرح موطأ الإمام مالك» للشيخ محمد
زکریا کاندھلوی، و"فیض الباری" إفادات للعلامة أنور شاه
الکشمیری على صحيح البخاری، لا تزال عمدة ومرجعاً لطلبة
هذا الفن الشريف وعلمائه، و"مراعاة المفاتیح في شرح مشکة
المصابيح» لشیخ الحدیث مولانا عبید اللہ المبارکفوري، قد
ظهرت منه أربعة أجزاء بعد.

وبعد كتاب "آثار السنن" للعلامة ظهیر أحسن الیمومی (1) في
تأیید المذهب الحنفي، والتقد في الحديث، كتابًا عاليًا وزيادة
عظيمًا وافية بين مؤلفات الهنود في علم الحديث، ومن سوء
الحظ لم يتم هذا التأليف، لأن عمر الشیخ لم يساعده، ولو تم
هذا الكتاب لكان خدمة جليلة علمية في تأیید وجهة النظر الحنفیة
والتقد في الحديث.

ومن الكتب التي اعتنى بها العلماء في الأقطار الإسلامية
وعدوها من خيرة ما كتب في الموضوع، كتاب في التفسیر

(1) كان العلامة ظهیر أحسن من كبار تلامذة فخر المتأخرين العلامة
عبد الحی بن عبد الحليم الكهنوي، وكان العلامة أنور شاه
الکشمیری يقول: "لم تنبج الهند محدثًا بمرتبته منذ ثلاثة
قرون".
للتأصلي فثناء الله الهاني بتي، وهو "التفسير المظاهر" ويعتبر من أفضل ما كتب علماء المذهب الحنفي في التفسير في العهد الأخير، وطبع في الهند على الحجر في عدة مجلدات كبار، وكتاب "إظهار الحق" و"إزالة الأوهام" للشيخ رضمة الله الكناني (م 1309 هـ) وما فصل الخطاب، والخطيب في المحراب، في نقد التوراة والإنجيل والرد على النصرانية، ولا يزال الكتاب الأول فريداً في موضوعه منقطع النظر في مقصده.

و"فقه اللسان" للقاضي حسن الكنتوري (م 1365 هـ) يدل على رسوخه في الفلسفة اللغوية وعلم اللغة والاشتاق مع كون المؤلف من أصحاب الاختصاص في الفلسفة والحقوق والمتشغلين بالقضايا والوظائف الرسمية.

و"الإعجاز في أقسام القرآن" للعلامة حميد الدين الفراهي (م 1349 هـ) و"الجمرة البلاعجة" و"رسائل في تفسير سور من القرآن"، وهي أجزاء من تفسيره المسمى "نظام القرآن وتأويل القرآن بالقرآن" تدل على عمق فكره ودقة نظره وإطلاعه الواسع على التوراة والإنجيل، وتضلعه من العلوم العربية والبلاغة وأشعار الجاهليين وأساليب بيانهم، والغوص في المعاني.

ومنها "التفسير المجادي" للشيخ عبد المجيد الديرابادي يمتاز بالدراسات المقارنة العقائدية والتاريخية والعلمية.
الاستفادة من المصادر الأجنبية، وما كتب عما يشتركون فيه الصحف السابقة والقرآن من أمكنة وأعلام وحقائق تاريخية وما دلت عليه الآثار والحفريات، والاحتجاج بكل ذلك على إعجاز القرآن(1).

ومنها «ترجمان القرآن» في مجلدين لموكنا أبو الكلام آزاد، وزير المعارف الأول في الجمهورية الهندية، وقد كتب في أسلوب أدبي قوي رفيع وإنشاء بليغ، وفيه بعض بحوث طريفة ونكت لطيفة ولكن الكتاب لم يتم.

ولفضلاء الهند ومؤلفيها كتب في الفارسية في أغراض إسلامية وعلمية تستحق أن تعتبر فريدة في موضوعها، وبديعة في أسلوبها وتأثيرها، أو في طرافة بحوثها، أو غزارة مادتها، لذلك نقل عدد منها إلى بعض اللغات الإسلامية، كالعربية والفارسية والتركية، كرسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهرادي، ورسائل الإمام يحيى بن شرف الدين المنيري البهاري المعروفة بالمكتوبات في المعارف الإلهية والنكت.

(1) صدر الكتاب بالنص الإنجليزي في أربعة مجلدات من المجمع الإسلامي العلمي بدعوة العلماء، والنص الأردي مائل للطبع، والكتاب يمتاز بسلامة العقيدة وعرض وجهة النظر السنة السليمة، والدراسات المقارنة.
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

الشرعية، و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الذهلي في بحث الخلافة وثبوت خلافة الخلفاء الراشدين، و«الفوز الكبير في أصول التفسير» له، و«تحفة اثنا عشرية» في الرد على الشيعة الإمامية، لولده العلامة عبد العزيز الذهلي، و«الصراع المستقيم» في فن التركية والتصوف، للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، و«منصب الإمامية» للشيخ العلامة إسماعيل بن عبد الغني، كلها بالفارسية.

ولهم تأليفات في العهد الأخير في أردو اعتبرت من أفضل ما ألف في موضوعها، وأكثرها في السيرة النبوية ك«سيرة النبي» في ستة مجلدات كبار (1)، للعلامة شibli النعماني وتلميذه الأستاذ الكبير سليمان الندوي، وهي كدارة المعارف في السيرة وعلم الكلام والتوحيد، والعلامة السيد سليمان الندوي محاضرات في السيرة النبوية، ألقاها في مدراس، وطبعت في أردو باسم «خطبات مدراس» وهي من أجمل ما كتب في السيرة (2)، و«سيرة رحمة للعالمين» للقاضي سليمان المنصور.

1) وقد صدر الجزء السابع أخيراً وهو خاص بالسياسة الشرعية والمعاملات، وهو صغير الحجم بالنسبة إلى الأجزاء السابقة. 
2) نقلت هذه المحاضرات إلى العربية ونشرت مراراً باسم «الرسالة المحمدية» تعريب: الأستاذ محمد ناظم الندوي، طبع بعناية السيد عبد المجيد الغور في دار ابن كثير دمشق.
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

فوري، في ثلاثة مجلدات من أعظم كتب السيرة تأثراً، و«النبي الخاتم» للشيخ مناظر أحسن الكيلاني، من أكثرها استنادات ونكتاً لطيفة، و«الفاروق» للعلامة شبل النعماني في سيرة أمير المؤمنين عمر، و«شعر العجم» له، في تاريخ الشعر الفارسي ونقده، ومؤلفات العالم الربياني مولانا محمد قاسم النانونتي في علم الكلام وفضل الإسلام، وإثبات بعض عقائده وأحكامه.

ولم يزل شعار المسلمين في الهند منذ العهد الأول الاعتناء الكامل باللغة العربية، والتعصبة لها، وقد حافظوا عليها كلهة التأليف والعلم، وكان فيها شعراء مفقدين، كالقاضي عبد المقترح الكندي الدهلوي (م 791هـ) والشيخ أحمد بن محمد التهانيسري (م 830هـ) والشيخ غلام علي آزاد البلكري، صاحب «السبع السيارة» (م 1300هـ) والمفتي صدر الدين الدهلوي (م 1285هـ) والشيخ ذي الفقار علي الديونيزي (م 1322هـ) وأدباء محققون كالعلامة عبد العزيز الميمني، والشيخ أبي عبد الله محمد السوري.

ولا يزال المسلمون متمسكين باللغة العربية يدرسون أمهات كتبها في مدارسهم التي يسمونها "المدارس العربية" ويؤلفون ويكتبون فيها، وقد أصدروا في فترات مجلات وصحفاً عربية تدل على عنايتهم بهذه اللغة ونشرها وإحيائها، منها مجلة
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

«البيان» الشهرية التي كانت تصدر من لكونه، وكان الشيخ
عبد الله عمادي والاستاذ عبد الرزاق المليح آبادي الندوي في
إدارة تحريرها، ومنها صحيفة "الجامعة" الأسبوعية التي كانت
تصدر من "كلكتا" وكان رئيس تحريرها مولانا أبو الكلام أزاد
رئيس المؤتمر الوطني بعد، ووزير المعارف في الحكومة الهندية
بعد ذلك، ومنها مجلة "الضياء" الشهرية التي كانت تصدر من
ندوة العلماء لكونه، ونالت إعجاباً وتقديرًا في الأوساط العلمية
الأدبية في البلاد العربية، منشئها المرحوم الأساتذة مسعود عالم
الندوي، ولا تزال مجلة "البعث الإسلامي" لسان حال الدعوة
الإسلامية ورائد الفكر الإسلامي تصدر من ندوة العلماء،
وحليفة "الراشد" الندوية الأسبوعية ينشرها طلبة دار العلوم
ويكتبون فيها، وجريدة "الكافح" التي تصدرها جمعية علماء
الهند من دهلي، وجريدة "الدعوة" (1) التي تصدرها الجامعة
 الإسلامية، و"صوت الجامعة" التي تصدرها الجامعة السعودية
بنارس، و"دعوة الحق" التي كانت تصدر من دار العلوم
"ديوبند" وظهرت مكانها الآن "الداعي".

وقد خرجت دار العلوم التابعة لندوة العلماء طائفة من الكتب

(1) وقد احتجت منذ حل الجامعة الإسلامية في يوليو 1975 م.
ولكنها استأنفت صدورها بعد رفع حالة الطرأء.
تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند

البارعين في اللغة العربية، وأوجدت نشاطاً أدبياً ملحوظاً في الهند، ومحصولاً ذا قيمة أدبية، لا يجمل لمؤرخ الأدب العربي أن يغفله إذا أراد أن يستوعب الحركة الأدبية في الأقطار الإسلامية ويذكر مدارسها المختلفة.

* * *
إن مما يدل على نجابة أمة وصلاحيتها للبقاء نبوغ عبثرين فيها في مختلف شعب الحياة وميادينها وأصناف العلم، والشعب الإسلامي في الهند غني في نوابغ الرجال، والعبقريين في ضروب الكمال.

قد قامت في الهند دولة إسلامية قوية منذ القرن السادس الهجري، اجتمع في ظلها نوابغ كل فن، وأئمة كل علم، غزاة التتار الشرق الإسلامي وأنزلوا على العالم الإسلامي البلاء والشقاء، وخربت الحواضر الإسلامية ومراكز الحضارة والثقافة في العالم الإسلامي، وبدت موجات الهجرة والجلاء قوية واسعة في المدن التي كانت فريسة الغارات التترية المغولية، وتزحت أكثر البيوتات الشريفة والأسر العريقة في العلم والصلاح والشرف تهيم على وجهها في الأرض وتبث لها عن مأوى تأوي.
نوايع الشعب الهندي الإسلامي

إليه، وتعتصم به عن هجمية التتر الوحش ومعرتهم وقلقي به رحلها.

وكان الهند التي يحكمها المماليك الأقوياء من السلالة التركية هي البلد الوحيد في الشرق التي صمدت للشتار والمغول وردت غاراتهم مرة بعد مرة، فلما إليها في فترات كثيرة عدد من أكرم الأسر وأعرقها في العلم والذكاء والشرف في تركستان وإيران، وأقام في الهند عشائر كثيرة توارثت العلم والنبوغ والشرف والمناصب الدينية كابراً عن كابر، وكثرت هذه العشائر في عصر شمس الدين التميش وغياث الدين بلبن وعلاء الدين الخلجي، يتحدث عنها وعن سبب هجرتها مؤرخ الهند القديم ضياء الدين البرني، يقول:

"إن هذه الأسر وهؤلاء الأشراف والسادة والعلماء الأجلاء إنما هاجروا في حادثة جنكيز خان الملعون، كان منها أمراء وقواد وأساتذة كبار وقضاة وشيوخ أبناء ومرهون كبار" (1).

وُنعِيَ في هذه الأسر الكريمة وفيمن أسلم على يدها من الأسر الهندية الكريمة رجال في العلم والدين والإدارة والسياسة، وكان منهم رجال عز نظيرهم في العالم الإسلامي.

نعيل في الهند في هذا الشعب الإسلامي الهندي ملوك وأمراء

راجع تاريخ فيروز شاهي عهد السلطان غياث الدين بلبن.

(1)
ووزراء وقادة للجيوش وعلماء ومؤلفون يتجمل بهم تاريخ الإسلام العام، ويكان يكون كثير منهم العلم المفرد في بعض صفات الكمال ونسج وحده فيها.

والذي يقرأ سيرة الحاكم العبقري شير شاه السوري (م 952هـ) ويعرف مأثره في إدارة البلاد ورفاهيتها ومشاريعه العمرانية الضخمة البديئة وقوانينه العادلة وتشريعاته الدقيقة وإنتاجه السريع الضخم - وقد ذكرنا بعض ذلك في الفصل السابق - ويعرف أن كل ذلك قد تم في خمس سنوات فقط، وهي المدة التي حكم فيها شير شاه، وبعضه يعجز عنه الحكومات الكبيرة المنظمة في آجال طويلة، ولم يستطع كثير من الملوك والحكام الإنجليز على كثرة الوسائل وتقدم المدنية وحدود الآلات أن يأتوا ببعض ما أتي به هذا الملك العظامي في عصر متفق في الصناعة والمدينة، ييه بعظمة هذا الرجل، ويؤمن ببعقريته ويصدق أن هذا الرجل فريد في العصور والأمصار، ويستحق أن يوضع في صف أعظم الرجال في العالم (1).

والذي يقرأ سيرة السلطان أورنك زيب عالمكير (م 1118هـ) وما جمع من فضائل علمية وعملية، ويقرأ تاريخه الحافل بجلال الأعمال، ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم يقطع ولم

(1) اقرأ ترجمته في "نزهة الخواطر" المجلد الرابع.
يُوقف يوماً واحداً في خمسين سنة حكم فيها، وفتوحاته العظيمة وإصلاحاته الكبيرة وتفشيه في الحياة وتحمله للشدة واستقامته وصلابته وعمق روحه في سن عازلة (1)، ويقرأ نظام أوقاته، ومحافظته على الفضائل والحسن مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره، وشغله بالعبادات والعلم والمطالعة، آمن بأن هذا الرجل لا يوجد له نظير في علو الهمة وقوة الإرادة في ملوك العالم، وأنه خلق من جديد، وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور وفي جميع الأجيال.

ومنهم السلطان الفاضل العادل المحدث الفقيه مظفر حليم الكجراتي (م ۹۳۲هـ) الذي روّى عنه التاريخ من نوادر الإخلاص والإيمان والاحسان والقوّة والعمل بالعزم والعدل والإيثار والحمية في الدين والتبحر في العلم ما يندر وجوده في سير كبار الزهاد والربانيين وكبار المخلصين فضلاً عن الملوك والسلطانين.

يقول مؤرخ «كجرات»:

«حاول ملوك وأمراء «مالهو» قرناً كاملاً تقريباً أن يغزوا إمارات «كجرات» بجيوشهم، ولكن محاولاتهم كلها باءت...

(1) عمر أورنك زيب تسعين سنة ولم يزل مرطباً مناضلاً إلى آخر ساعاته، وفي كتاب «رجال من التاريخ» للأستاذ الططاوي طرف من ترجمته. طبع دار المناجر بجدة.
نوابغ الشعب الهندي الإسلامي

بالفشل، ولكن سوء إدارة السلطان محمود الشاه الثاني سلطان
"مالوه" أدى إلى انتقال زمام الأمر إلى أيدي وزيره "مندلي رائي" الذي عزل السلطان محمود، وعكف على محو الشعائر الإسلامية، ونشر الطقوس والعادات غير الإسلامية، فتحرك له السلطان مظفر شاه حليم (عليه الرحمة) وثارت حفيظته وحميته، وكان ولياً على "كجرات" فور حف إلى "مالوه" بجيش عرمرم ووصل إلى باب "مالوه" بعد أن قطع مسافة طويلة، وحاصر البلد، وخاف "مندلي رائي" أنه ربما لا يستطيع مقامته أو الصمود له لوحده، فأعد "رانا سنجا" بإرسال هدايا نفيسة إليه واستنجد به، ولكنه قبل أن يصل إلى "سارنج بور" وجه السلطان مظفر حليم" إليه أوقفاً من جيشه العظيم للتصدي له، فلم يستطيع جيش "رانا سنجا" أن يتراوح هذا الجيش، وانتصر السلطان وفتح القلعة قبل أن يصل نجدته إلى "مندلي رائي" من المناطق المجاورة.

وجوه الكلام أنه لما دخل السلطان مظفر حليم في القلعة واستعرض رفقته ما تركه ملوك "مالوه" من آثار للنعيم والخزائن، والثروات الطائلة، واطلعوا على رحاء تلك المنطقة وخصوصاً قالوا للسلطان: إن أكثر من ألفي فارس استشهدوا في القتال، فليس من المناسب أن نتخلى عن هذه البلاد بعد هذه الخسائر الجسيمة، ونولي إمارتها للملك الذي كان سبباً في
نوايغ الشعب الهندي الإسلامي

إطلاقها ، وانتقال السلطة من يده إلى «مندللي راثي» فلما سمع
السلطان مظفر هذا الكلام ، توقف قليلاً ، ثم خرج من القلعة ،
وأمر السلطان محمود بأن لا يسمح لأحد من رفقته بالدخول في
القلعة ، وألح السلطان محمود كثيراً بأن يمكث السلطان مظفر
حليم بضعة أيام في القلعة ويستريح ، لكنه لم يقبل هذا الطلب ،
وكشف آخرى أنه قام بهذا الجهاد لمجرد رضا الله ، وقال: إنه
خشي من كلام الأمراء أن يدور بخليده طمع في القلعة ويبط
عمله ، إنه لم يحسن إلى السلطان محمود ، بل إن محموداً نفسه
هو الذي أحسن إليه ، بأنه كان سبباً في نيل هذا الشرف
العظيم»(1).

والذي استطاع أن يقول في مرض وفاته تحدثاً بنعمة الله:

اما من حديث رويته عن أستاذ المسند العالي مجد الدين
بروائته عن مشاهبه إلا وأحفظه وأسند وأعرف لراويه نسبته ،
وثقته ، وأوائل حاله إلى وفاته ، وما من آية إلا وقد منَ الله علي

(1) «باد أيام (تاريخ كجرات) للعلامة عبد الحليم الحسني (أمير ندوة
العلماء سابقاً) نقلاً عن «مرآة سكندري» والقصة مبسوطة في
تاريخ كجرات للأصفي المعروف بـ «ظفر الواله» والكتاب
بالعربية ، وكذلك في كتاب «نزهة الخواطر» ج4 ، وهي مروية
في ترجمة من كتاب «رجال من التاريخ» للأستاذ علي
الططاوي.»
نبأع الشعب الهندسي الإسلامي

بحفظها، وفهم تأويلها، وأسباب نزولها، وعلم قراءتها، وأما
الفقه فإني استحضر منهما أرجو به مفهوم "من يرد الله به خيراً
يفقه ففي الدين" ولي مدة أشهر أصرف وقفي باستعمال ما عليه
الصوفية، واتشغلت سنته المشايخ لتركية الأناشيف عملاً بما قيل
«من تشبه يقوم فهو منهم» وهذا أنا أطلع في شمول بركاتهم متعلاً
بعسى وعلل، و كنت شرعت بقراءة معالم التنزيل وقد قاربت
إتمامه إلا أنني أرجو أن أختمه في الجنة إن شاء الله تعالى.

وافست روحه وهو يدعو بدعاء سيدنا يوسف - على نبينا
وعليه الصلاة والسلام - ۹۰ رُبِّ قَدْ أَتُّنِي مِنْ أَلْمَاهُ وَأَلْمَهُ مِن
تأولِ الأُكْسِبِيْنِ قَاتِرُ السَّمْوَةِ وَالآخِرِينَ أَتُّنِي فِي الْدِّينِ وَالْآخِرِ أَتُّنِي
مَسِيِّمًا وَأَلْحَقَّيْنِ بِالصَّلَايِنَّ مَلَائِكِينَ» (۱).

هذا في الملوك، وأما في الوزراء فنجد مثل الوزير
عماد الدين الكيلاني المشهور بمحمود كاوان (م۱۸۸۸ هـ) الوزير
العالم الفاضل الذي جمع بين رئاسة الدين والدنيا، وطبقت
شهرته الآفاق وانفرد في حسن الإدارة وكرثة العبادة ووفر
التقوى، وغزارة العلم، وبلاغة القلم، وصناعة الإنشاء،
ومدحه العلامة عبد الرحمن الجامعي الشاعر الصوفي المعروف
ببيته السائر:

 اقرأ ترجمته الحافلة في "نزهة الخواطر" ج4.
نواحي الشعب الهندي الإسلامي

هم جهان را خواجه وهم فقر را ديباجه أوسط
آية الفقر ولكن تحت أستار الغنى

ونجده مثل الوزير أبي القاسم عبد العزيز الكجراوي المشهور
بـ칭,X خان وزير كجرات المتوفى (961 هـ) العالم الأصولي
الفقيه المحدث المدرس القيدر الذي أفرد علامة الحجاز شهاب
الدين بن حجر المكيا رسالة في مناطبه وذكر له فيها من الفضائل
العربية ومكارم الأخلاق والاشتغال بالعبادات، والأخذ بعوازم
الأمور، ودقات النقوش، والعكوف على المطالعة والتدريس،
وتشجيع العلم والعلماء، والإحسان إليهم، وحسن الاستقامة،
ما يحير الأثاب ويدهش العقول، ومدحه شعراء الحجاز
بقصائدهم، ورثوه على وفاته رثاء رقيقاً حزينًا(1).

ومهمهم الأمير الكبير الأديب الشاعر البطل الأعظم صاحب
السيف والقلم، عبد الرحيم بيرم خان الدهلوي، قائد قواد
الحكومة المغولية في الهند (م 1005 هـ) الذي اضطر مؤرخاً أميناً
لا يكيل المدى جزافاً أن يقول في ترجمته:

"كان له من النقاوة النامة والشهامة الكاملة وعلو الهمة
والكرم ما لا يمكن وصفه معرفة للأدب ومطالعة كتبه،

(1) إنه سيد من سادات العالم، وجمال للزهد وزينة للقوى.
(2) اقرأ ترجمته في "نتجة الخواطر" المجلد الرابع.
نوابغ الشعب الهندي الإسلامي

والإشراف على كتب التاريخ، ومحبة أهل الفضائل، وكراهية أرباب اليوذ، والنزاهة والصيانة والميل إلى مهالي الأمور حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يساويه في مجموع كمالاته.

قال عبد الرزاق الخوافي في مآثر الأُمَرَاء:

«إنه كان أوحد أبناء العصر في الشهامة والكرم، ماهراً في اللغات المتعددة، من العربية والفارسية والتركية والهندية وغيرها، وكان يتكلم في كل من تلك الألسن بغاية الفصاحة والطلاقة، ويقول الشعر الرقيق البليغ فيها.

وعبد الرحيم من الشعراء المعدودين في اللغة الهندية(3)، الذين لهم في تاريخ أدب البلاد مكان مرموق محترم، ومن فحول شعراء الفارسية.

أطل العَالَم الإسلامي بعد الغارة المغولية انحاقات في التفكير والتأليف، وفقد الابتكار والإبداع، إلا في النادر، وقد ظهر هذا الانحدارات في شكل واضح بعد القرن الثامن، وبدأ الإعياء

(1) يعني في الأمراء والوزراء.
(2) "نزهة الخواطر" ص317 المجلد الخامس.
(3) هي غير اللغة الأردية، وهي لغة الهند التي كان يتكلم بها أهل الهند قبل أن تنتشر لغة أردية.
الفكري والاستعراض الأدبي في أكثر نواحيه، ولم ينهض إلا أفراداً كان لهم إنتاج وإبتكار ظاهر، كالعلامة عبد الرحمن بن خلدون، وعاشت الهند مدة طويلة في عزلة عن هذا الإعصار والعقم، فقد كانت الهند لبدها عن الغارات التترية ووقوعها في أقصى الشرق الإسلامي من أقل البلاد تأثراً بالهجوم التتر، وويلاته، وكانت للجوء كبار العلماء وكرم اليوت إليها لا تزال قوية في الحركة العلمية، وبيها فيها نشاط وإنتاج في العلم والتاليف والتفكير مدة طويلة، ووجد فيها فترات كثيرة رجال يستحقون أن ينحدروا من نواحي الإسلام، ويبدو في مؤلفاتهم وأفكارهم شيء كثير من الإبتكار والإبداع والطراوة، والشذوذ عن الأسلوب المألوف المعروف في ذلك العصر، كالشيخ شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري البهاري (م 772ه) صاحب الرسائل البديعة في التربية وحقائق الشريعة، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي (م 1161ه) صاحب «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» والشيخ رفيق الدين الدهلوي (م 1233ه) صاحب «أسرار المحبة» و«تكمل الأذهان» والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي (م 1264ه) صاحب «العيقات» و«منصب الإمامة» الذين يجد القارئ في رسائلهم ومؤلفاتهم كثيراً من الأفكار الطريفة والتحقيقات الجديده والاستنباطات اللطيفة التي تخلو عنها كتب أكثر معاصرهم.
أصبحت الهند لأسباب تاريخية طبيعية(١) في العهد الأخير مركزاً للدعوة الدينية القوية والتجديد الإسلامي في العالم الذي تخضع حدود الهند إلى أقطار أخرى، ووجد فيها دعوة ومجددون من أفضل الدعاة والمجددين الذين عرفهم تاريخ الإسلام في العهد الأخير قوة ودعوة، ورسوخاً في العلم، وعمق وتأثير وانتشار رسالة، وتشيهاً بالدعوة الإسلامية الأولى.

عرفنا منهم الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٥٣٤ هـ) الذي لقبه الهند بحق «مجدد الألف الثاني» وقد ظهر منه تجديد صلة الشعب الهندي بالإسلام في هذه البلاد، والانتصار للشريعة وحفظها من تحريف الغالين، وانتجاح المبطلين، وتأويل الجاهلين، وإلحاح المتصوفين الوجوديين (٢)، ومن صرف الحكومة المغولية القوية من اللادينية، وتلقيف الأديان، وإيثار البرهمية والوثنية الهندية التي اندفعت إليها بتهور وحماس، إلى التنين بدين الإسلام واحتضانه، ولم يكن الملك الصالح المؤمن المجاهد السلطان

(١) شرحنا هذه الأسباب في كتابنا الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الخاص بالإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي ظيع دار ابن كثير دمشق.
(٢) الغلاة في عقيدة وحدة الوجود.
نوابغ الشعب الهندي الإسلامي

اورتك زيب عالمكير إلا ثمرة من ثمرات دعوته وجهاده (١)، وانتشار طريقتة العلية بواسطة العلامة خالد الشهرزي الكردي (٢٤٢ هـ) في بلاد الروم والعرب والحجاز وبلاد الأكراد وسوريا وتركيا انتشارا لم يعرف لطريقة.

وكان منهم السيد أحمد بن عرفان الشهيد (١٤٢ هـ) الذي قام بالدعوة إلى الدين الخالص، والجهاد في سبيل الله، وتأسيس الحكومة الشرعية على منهج الخلافة الراشدة، ونفح روح الجهاد والحماسة والتضحية في الهند، وحشت بجهوده في الهند ريح الإيمان وعادت نفحة من نفحات القرن الأول، ولم يعرف مثله في القرون الأخيرة، في قوة التأثير، وعلو الهمة، والحمية الدينية، ولم يعرف مثل جماعته وأتباعه في الصلاة في الدين والاستقامة على الشريعة وحب الجهاد (٣)، وحسبك

(١) تحدثنا عن ذلك قليلًا في رسالة "الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها" وفي الجزء الثالث من سلسلة "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" الخاص بالإمام السرحاني.

(٢) راجع كتاب "أصبح المهوارد في ترجمة سيدنا خالد" تأليف الشيخ عثمان والسحاب الهندي لنصرة مولانا خالد النقشبي، تأليف العلامة محمد أمين بن عمر عابدين صاحب رد المحترم (١٢٥٢ هـ).

(٣) راجع كتاب المؤلف "إذا هبت ريح الإيمان" طبع بيروت.
ما قال الأمير صديق حسن خان صاحب المؤلفات الشهيرة الكثيرة:

» ولم نعرف ولم يخبر الناس بوجود رجل يضارعه في كماله في الماضي القريب في قطر من أقطار العالم، والفوائد التي حصلت للخلق من هذه الجماعة المنصورة لا يبلغ معاشارها فوائد مصلحين آخرين من شيوخ الأرض وعلمائها(1).

وقد أصبحت الهند مركزاً في عهدنا للدعوة الدينية العالمية مرة أخرى، وكان داعيها مولانا محمد إلياس الدهلوي (م1363 هـ) من أقوى الدعاء الذين عرفهم العالم الإسلامي في العهد الأخير، ولن نر مثله - في البلاد التي عرفناها وزرناها - في قوة الإيمان بالغيب، والاعتماد على الله، وقوة الدعوة والانقطاع إليها، والتجرد لها، والنجاح في مهمته، وقد انتشر دعاته وجماعاته في العالم الإسلامي، وهي في نشاط مستمر(2)، وغدو وراها في الأقطار الإسلامية، وفي أوربا.

(1) تقصار جنود الأحرار 109 - 110.
(2) قاد هذه الحركة وأشرف عليها بعد وفاته خلفه البر الراشد مولانا محمد يوسف الدهلوي، وتوفي إلى رحمة الله تعالى(1384 هـ)، ومركزه نظام الدين في دهلي، وخلفه الشيخ إنعام الحسن، ولا تزال الحركة تواصل نشاطها الدعوي والتربيوي، وقد انتشر نشاطها في سائر أنحاء العالم الإسلامي تقريباً.
نواعج الشعب الهندي الإسلامي

وأمريكا وأفريقيا واليابان، وقد أشعلت هذه الدعوة مجامع القلوب، وألهبته جذوة الإيمان في آلاف مؤلفة من المسلمين.

هذه أمثلة قليلة جداً من أعلام الهند ورجالاتها الكثيرين في مختلف ميادين الحياة وأصناف القتل والنبغ، وإن نظرة خاطفة في كتاب "نزهة الخواطر" الذي يتضمن تراجم نحو خمسة آلاف من أعيان الهند ورجالها تدل على غناها وخصوصهم وإنطاحها وكثرة من نهج فيها، ونهوض من أرضها، من أصحاب الفضل والكامل والنبغ.

ولم تزال ولا تزال خليلاً الإسلام في الهند تعمل، والشجرة التي غرسها اليدين الكريمة الخالصة وساقها الصالحون من عباد الله بدموعهم والمجدودون في سبيل الله بدمائهم في كل عصر، تثمر وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربه، وكان في الشعب الإسلامي الهندي في كل جيل وفي كل عصر رجال أثبتوا نبئهم، ورجاحة عقولهم، وذكاءهم النادر، ومواهبهم الفريدة، وتفوقهم الذهني على الشعوب الأخرى، وكان فيه بعد استقرار الحكم الإنجليزي في البلاد رغم جهود الحكومة الإنجليزية العظيمة في إخماد جذوة الذكاء وتجفيف متبوع الثقافة في هذا الشعب الإسلامي (1) نواعج في التشريع والقضاء، وفي الإدارة

(1) و.W.Hunter our India Mussalmans لويلم هنتر.
وابحاث الشعب الهندي الإسلامي

والحكم، وفي علوم الرياضة والحساب، وفي فن التعليم وفلسفته، وفي السياسة وعلم الاقتصاد، وفي العلوم الطبيعية والكيمياء، والأدب الإنجليزي ونقده، أقر بفضلهم ونبغهم علماء هذه الفنون في بلاد الإنجليز، وكان منهم خطباء وكتاب، ومؤلفون في الإنجليزية، لا يقلون عن أدبائها وكتابها في الاقتدار على اللغة والتصرف في مناهج الكلام وجمال الأسلوب.

وكان فيه قادة سياسيون، وزعماء ودستوريون، وخطباء يوّضعون في الصف الأول من القادة السياسيين، والزعماء والخطباء في هذا العصر.

وكان فيه شعراء وقادة الفكر الذين كانوا أصحاب إبداع وعبارة في الشعر، وأصحاب دعوة ورسالة في الفكر، وتغنى بشعرهم الإسلامي إيران، وأفغانستان، وتركيا، وتترجم إلى لغات العالم الإسلامي (1).

أما الثقافة العربية فلا يزال الشعب الهندي متمسكًا بها، محافظًا عليها، منتجاً فيها، وتغلب الآثار والقرائن على تكون مدرسة أدبية خاصة فيها، في الأدب العربي والكتابة الإسلامية،

(1) ناهيك شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي نبّح في الهند قبل التقسيم ومات، اقرأ: "رائع إقبال" للمؤلف.
تجمع بين البراعة الأدبية والإشراق الروحي، والإيمان العميق والدعوة الصريحة القوية.

كل ذلك يدل على أن هذا الشعب الإسلامي الهندي - الذي يمر بمرحلة عصيبة في حياته وينواجه مشكلات صالح للبقاء، قائم بالكافح، وإنه صاحب شخصية قوية خالدة.

* * *

* * *
تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية

من مناظر تأثير المسلمين في ثقافة الهند وحضارتها تأثير اللغة العربية - التي تخصصها والتي حملوها إلى هذه البلاد - في لغات الهند، ولهجاتها وأدبيها وحضارتها.

إن تأثير لغة راقية متعددة في لغة أخرى ليس بدعاً من الأمور، ولا حادثاً طرفاً في تاريخ اللغات والثقافات، ولم تزل الحضارات البشرية في كل طور من أطوار المدنية تتبادل الأفكار والخواطر، والكلمات وطرق التعبير، ولم تزل في أخذ وردّ وإفادة واستفادة، وهذه طبيعة الحياة والرقي، وكل لغة سدت في وجهها أبواب الاستفادة والاستعارة وبقيت متمسكة بتراثها القديم لا تزيد في ثروتها، ولا تضيف إلى قديمها، فقد قطعت صلتها عن المدنية وحرمته نفسها الإزدهار والتوسع، وتخلفت

(1) حديث أذيع من الإذاعة الهندية في دهلي القسم العربي.
تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية

عن ركب الحياة، وأصبحت من اللغات الجامدة المحدودة التي لا تساءد الأديب والشاعر، ولا تقضي حاجة الإنسان الحي المتمدن.

كنت أعتقد أن اللغة العربية تكون جزءاً لا يستهان به من أجزاء لغة "أردو" التي هي مزيج اللغات الأربع: العربية والفارسية والتركية والسنتراريثوية ووليدها جميعاً، ولكني كنت أكيد القضية في الكلمات العربية التي بقيت على شكلها العربي في "أردو"، و كنت أكيد القضية في أردو التي لها نسب قريب مع اللغة العربية، ولكن شكراً للقائمين على إدارة الإذاعة الهندية، إن اقتراحهم لحديث عن موضوع تأثير اللغة العربية في لغات الهند، أثار في نفسي رغبة في البحث عن هذا الموضوع، وأعترف أنني استفدت كثيراً، وصادفتني في هذه الرحلة الممتعة شخصيات متنكرة كانت ترتدي الحلة الوطنية، فلما بحثت عنها وجدتها عربية خالصة، وإليكم مذكرة هذه الرحلة الشائقة، والتعرف اللذيذ، والبحث المفيد.

كان واجبي قبل أن أبدأ هذه الرحلة أن أتأكد من وجود جهاز السفر ونقائسه، لأنني سأجلس في أنحاء الهند، والبلاد عريضة واسعة فانتقل ذهني إلى كلمة "دام" التي تستعمل في "أردو" وفي الهندية بمعنى النفقة والمال، فإذا هي مأخوذة من كلمة (درهم) العربية التي كانت تطلق في معنى المال مطلقًا، فيقال: الدرهم.
تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية

والدينار، ثم انتقل ذهني إلى أجزائه وتفاقيقه، فمن تفاريقه الصغيرة "كيرانت" التي لا تزال تستعمل في الأوراق المالية في المقاطعات المتحدة الشمالية الغربية فإذا هي (قيراط) العربية، وبهذه المناسبة تذكر كلمة (أشرفي) وهي العملة الذهبية، التي كانت تستعمل في القديم، ولا تزال مستعملة في الكلام، وبحثت عنها في التاريخ فرأيت البحار العربي المشهور ابن ماجد أسد البحر يقول في كتابه "الفوائد في أصول البحر والقواعد": والحادي عشر برسي الأشرف ضارب سكة الأشرفي.

نزلت ضيفاً في هذه الرحلة عند صديق هندي كريم أكرم وفاديته وأحسن ضيافتي، وتلتقي في صنع الأطعمة واستعرضت مائذته السخية فإذا من أنواع الأطعمة "قلينة" وهو رز مسحوق يطبخ مع اللبن الحليب والسكر، وكان يقال له في القديم "المهلبية" وبحثت عنه فوجدت محمد الخوارزمي يذكر في الأطعمة التي كانت تهيأ للمرضى (الفراني) وكان يتركب من رغيف يختمر عجيه كان ينقع في اللبن ويضاف إليه السكر.

وكان من أنواع هذه الأطعمة "قلينة" ويطلق على إدام إذا كان فيه لحم ومرق وخضر، وأصلها العربي "قلينة" بالتشديد، وهو من قلي يقلي قلياً اللحم وغيره أنيضه، وكان بجوار القلية "كباب" وهو من الكباب، وهو القلب على الوجه، ويطلق على الطعام الذي يشوى مقلوباً على النار، وفي المعاجم العربية "كباب": 
عمل الكباب» وإن أنس في هذا الصدد فلا أنس «شوربه» التي يراد
منها المرق وأصلها (شربة) وهي ما تشرب دفعة واحدة.
وعجبت لما سمعت من مضيفي يطلب النارجيلة على عادة
أهل الهند ويأمر الخادم بتهيئة «سلفة» وهو مصطلح من
مصطلحات أصحاب النارجيلة، وفكرت فيها وفي أصلها فإذا
أصلها عربي، والسلفة في لغة العرب ما يعجل الرجل من الطعام
قبل الغداء.
ولما انتهيت من الطعام التفت إلى البيت وأثاثه، فوجدت
بدهشة أن كثيراً من أجزائه لها أسماء عربية ولا يعرف الناطقون
بها أن أصلها عربي صميم، فأول ما استرعى نظري «الزربية»
التي كنت جالساً عليها وبسميها أهل الهند «قاليين» فوجدت أن
أصله «القالي» وهو الفراش المنسب إلى (قاليقلا) وكانت مدينة
على نهاية المملكة الإسلامية وإليها نسب أبو علي القالي، يقول
ياقوت الرومي في معجم البلدان: وتعمل بقاليقلا هذه البسط
المسماء بالقالي، اختصروا في النسبة إلى بعض اسمه لثقله.
ومن أثاث البيت ورياشه انتقل فكري إلى من يرجع إليه
الفضل في تكون هذا البيت ووجوده بهذا الشكل الظريف، وهو
البناء المتواضع وجدت أنه يسمى في الهندية «راج» وهالني أنها
كلمة عربية بتغير حرف واحد، ففي المعاجم العربية: «الراج:
تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية

رئيس البنائين، وأصله رائّر كشائت وشائك، والرياعة حرفة الراذ.

ومقدم البنائين والحاذقين منهم يسمى في الهند (مستري) ووجدت أنه محرف من مسطري، وهو البناء الذي كان يحمل المسطر لتسوية الجدران وتقويمها.

ومن أشغال البنائين والنجارين الخرط والخراط، يقال:
خرط العود، يعني سواء بالمخرطة وخرب الحديد طوله كالعمود، ولا يزال مستعملًا في أردو فيقال (خراد) وما هو إلا الخراط لفظًا ومعنى.

واستعرضت آلات البناء والتصميم فإذا كثير من كلماتها ومصطلحاتها عربي، فمنها (ساسول) وهو حديد تربط في خيط طويل لتسوية الجدران، وقد ذكر الخوارزمي آلة في مفاتيح العلوم وسماها شاقول، ووصفها بقوله (هو ثقل يشد به في طرف حبل يمد به سفلاً يحتاج إليه النجارون والبنائون).

ومنها (كني وكونيا) وهو الكونيا، قال الخوارزمي: (يقدرون بها الزاوية القائمة).

ورأيت البيت ميضاً قد جدد تنويره فتذكرت كلمة (قلعي) التي هي في الهند بمعنى التنوير، ورأيت صاحب لسان العرب يقول:
تأثر اللغة العربية في اللغات الهندية

"والقلعي الرصاص الجيد وقيل هو الشديد البياض، والقلع اسم معدن الذي ينسب إليه الرصاص الجيد".

ورأيت رجلاً واقفاً على باب مضيفنا الكريم كالحارس، فانتقل ذهني إلى كلمة "أحدى" وهو الكسول الذي يكون حله البيت، يأكل من غير تعب عياناً على غيره، ومصدره رجل مفرد كان يقف على باب الملوك والأغنياء يحرس بوتهم، وكان بطبعه الحال عاطلاً لا شغل له، ويعيش على رواتبهم وフトات مائدةهم، ومن هنا نشأت فكرة "أحدى" يعني الرجل الكسول الذي يقضي وقته في البطالة.

ودعاني صديقي إلى الخروج للنزهة والتفرج فوثب فكري إلى كلمة "تماشا" التي يراد منها في الهند وفي كثير من لغاتها المحلية التفرج، فإذا أصلها "تماشي" وهو المشي مع أصدقاء وزملاء للتفرج والتنزه، وقد أصبحت مفتوحة على قاعدة الفارسية فيقولون "تمنا" بدل التماني و"تماشا" بدل "التماشي" و"تحاشا" بدل "التحاشي".

ولولا يسمع هذا الحديث الوجيز أن يستوعب جميع الكلمات أو نصفها التي تعرضت بها بصفتها كلمات عربية أصيلة صميمة في هذه الرحلة القصيرة، وجزى الله عن أهل العلم أستاذنا العلامة الكبير الدكتور السيد سليمان الندوي رحمه الله إذ بحث في هذا
تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية

الموضوع بحثاً علمياً دقيقاً، وعرض أمثلة جميلة من هذا القبيل (1). ولا يزال المجال واسعاً أمام الباحثين والمنقبين في اللغة بشرط أن يكونوا متوسعين في معرفة اللغتين اللغة الهندية واللغة العربية مطلعين على مصادرها القديمة، يحملون عناء البحث والتنقيب في المعاجم ودواوين العربية، لا يتهورون ولا يسرعون بالحكم، ويرافقون هذه الكلمات في رحلتها الطويلة، من بادية العرب وعواصم العالم العربي إلى صحراء السيد، إلى أودية الكنج، إلى شاطئ بحر العرب، وفي جميع أطوارها ومراحلها، وإذا فعلوا رأوا كيف نفتذت اللغة العربية في اللغات الهندية وكيف تسربت، وزعت الثقافة الهندية والحضارة الهندية، حتى امتجت بلحمها ودمها، وأصبحت جزءاً من أجزائها لا ينتبه لكونها كلمات عربية فضيحة، إلا أفذاذ من الباحثين وأفراد من المحققين.

* * *

(1) له في هذا الموضوع بحثان في مجموع مقالاته الأدبية واللسانية ومحاضراته، الذي سماء «نقوش سليماني».
الفباً للخصائص الأساسية لتكوين الحضارة:

إن حضارة المسلمين في كل بلاد وليدة عاملين (Factors) ومؤلفة من تأثيرهما وانعكاساتهما، أولهما المعتقدات الدينية، (المبادئ الإسلامية للحياة والأخلاق) وثانيهما تأثير الحضارات المحلية في البلاد، والاتصال بعناصر السكان الأخرى والاختلاط بهم.

أما العنصر الأول (المعتقدات الدينية، مبادئ الحياة الإسلامية والأخلاق) فتشترك فيه حضارات المسلمين في جميع الدول، إن المسلم مهما يكن في أي بلد، وفي أي ناحية من الأرض ومهما اختفى ملبسه ولغته، فإنه يجتمع في هذا العنصر، ولذلك لا نراه إلا كأفراد أسرة واحدة ومتبجي حضارة واحدة في كل مكان، والعنصر الثاني هي تلك الناحية من حضارتهم التي تميزهم عن إخوته في الدين في البلد الآخر.
فيتبن بها بلدهم الذي ينحدرون منه.
ولا يستثنى المسلمون الهنود أيضاً من هذا المبدأ العام، فإن حضارتهم التي تعرِّفت في عدة قرون، مزيج من التأثير الهندي الإسلامي، ويبعث ذلك على الروعة والجمال ويشمل أن لن يعيشوا في البلاد كعابر سبيل أو غريب، بل أن يعيشوا فيها كمواطنين آمنين، يسكنون بيوتهم حسب مقتضيات الظروف والمتطلبات، والعادات القديمة المتبقية، والبيئة الحديثة، بل يزودوا بيئتهم بتحسينات رائعة بديعة، وإن أي محاولة لتجريد قوم عن أثر ما بعد الطبيعة، والمبادئ الخلقية التي تتشترك فيها الشعوب الأخرى من مختلف أنحاء الأرض، وإن غراءهم بالخروج عليها لمحاولة أتمة لحورمانهم من السمة العالمية (Universallity) وتجنف مناصب روحانياتهم، وكذلك دعوتهم إلى قضاء الحياة منعزلين عن بيئتهم ومحيط الحياة العلمية، محاولة فاشلة وغير طبيعية وغير صالحة للقبول.

ثلاث سمات للحضارة الإبراهيمية:

ونظراً إلى العنصر الأول المشترك (العقائد ومبادئ الحياة والأخلاق) يحمل مسلمو الهند كمسلمون مختلف نواحي العالم حضارة خاصة لا نجد تعبيراً أصح من "حضارة الإبراهيمية" ولهذَه الحضارة ثلاث سمات صبَّت نظام الفكر والاجتماع بطابع خاص ولون مميز، ويتجلَّى هذا الطابع في جميع نواحي حياتهم.
وأجزائها، لا يخلو منه أي عمل يعملونه عن قصد، وهذه السمات الثلاث الأساسية، هي الإيمان بوجود الله سبحانه واستحضار ذاته، وعقيدة التوحيد (كما علمها الأنبياء من سلسلة إبراهيم)، وتفصيلها الكامل موجود في القرآن والتصور لشرف الإنسان ومسارته بصورة دائمة وإجبارية، والذي لا يغيب عن ذهن أي مسلم، وهذه هي السمات البارزة التي منحت الحضارة الإسلامية إزاها حضارات العالم الأخرى صورة جيدة نيرة، ولا نجد هذه السمات والمميزات في أي حضارة من حضارات العالم بمثل ما تتجلى في الحضارة الإسلامية.

ذكر الله في حياة المسلم:

إن الإيمان بوجود الله واستحضاره دائماً، ميزة عامة لا تنفك عنها حضارة المسلمين بأكملها ولا تتخلو عنها، وتتصور حضارة المسلمين ومجتمعهم، كأزياء مختلفة التفصيل والأنماط والطرائر أثرت فيها أذواق مختلفة وطبائع محلية وأحوال جوية وتأثيرات خارجية، كأن هذه الملابس كلها غمست في صبغة واحدة، ولم يبق فيها أي جزء لم يصبغ بتلك الصبغة، فإن اسم الله وذكره في حضارتهم ومجتمعهم يحل محل الدم الذي يجري في العروق، فكل ولد يولد في بيت مسلم يؤذن في أذنه أولاً إثر مولده، والاسم الذي يعرف به ويوئس قبل معرفة اسمه بنفسه هو اسم الله، وفي اليوم السابع من مولده يحتفل بعيقته
على طريقة سِنَّها رسول الله ﷺ، وتقترح له أسماء إسلامية ويرجع منها اسم يشف عن كونه عبداً، ويثبت وحدانية الله، أو يسمى باسم أحد الأنباء وأتباعه، ثم تأتي مرحلة التعليم يؤدي تقليد افتتاح الكتاب، فيتفتح باسم الله، آيات القرآن، وهذه التقاليد والعادات معروفة في مسلمي الهند، فإذا حان وقت الزواج يذكر اسم الله لعقد قران بين إنسان وإنسان بصورة دائمة، ويعاهدان على محافظة حرمة اسم الله.

» وأناَُّ أَلَّهُ أَلَّهُ أَنَّهُ بَيْنِي وَالِدِينِيَانِ."

والخطبة المسنونة التي تلقى، تذكر فيها نعم الله التي وهبها الإنسان من خلقه من سلالة آدم زوجين، ويلقن قضاء الحياة بطاقة الله والموت حسب تعاليمه وأوامره.

وهنا مناسبة العيد المبارك السارة، فيأمر المسلم بأن يغسل وينظف ثيابه ويلبس أحسن ملابسه لرفع عظمة الله وتأدية ركعتين شكرًاً على نعمة الله، ويؤمر في عيد الأضحى بأن ينحو باسم الله، وعندما تأتي مرحلة الحياة الأخيرة الحتمية يلقن فيها اسم الله، ويكون جل هم كل مسلم ومسلمة أن آخر ما يلفظه لسانه من كلمة تكون اسم الله، وأن يفارق الدنيا وهو يردد ذكره، فإذا نعى المسلمون ينطلق لسانهم بكلمة القرآن المعروفة والمستعملة في المحاورة الأردنية اليومية "إنا لله وإنا إليه راجعون".
وإذا أن أوان الوداع (صلاة الجنازة) يذكر الله أولاً وآخرًا، ويدعى لمغفرته والصفح عنه، ويدعو الناس «اللههم من أحييته من فأحيه على الإسلام، ومن توفيته من فتوفه على الإيمان» ثم يوضع في القبر في مرقده الأخير ويقرأ «بسم الله وعلى ملة رسول الله» يتحول وجهه إلى مركز التوحيد والعبادة العالمي «الكعبة المشروفة» مهما دفن في أي بقعة من بقاع العالم يكون وجهه إلى الكعبة، وإن مر بقبره مسلم بعد دفنه استغفر الله له وقرأ الفاتحة عليه، وعلى كل حال لا يفارقه ذكر الله والانتباه إليه في ركب الحياة كلها في كل آن وفي كل مكان.

فهذه كلها مراحل بارزة للحياة، أما حياة المسلم اليومية فلا تكاد تخلو من ذكر الله في كل وقت، بدأ المسلم الأول باسم الله ويختمه بذكر الله وحمدته، والذين يعنون بالسنن فأكلهم وشربهم وذهب منهم إلى المرحاض كله يكون باسم الله والانتباه إليه، ويؤمر بذكر الله إذا عطس، ويؤمر كل من سمع عطاس أن يشتمه، وفوق ذلك كلمات «ما شاء الله»، «إن شاء الله»، لا حول ولا قوة إلا بالله» ليست أذكاراً مأتورة فحسب ، بل أصبحت جزءًا للغة، ودخلت في المحاورات اليومية في البلدان التي يقطنها المسلمون منذ زمن بعيد، وأثرت حضارتهم فيها، كلها طرق لذكر الله والانتباه إليه، ولن ترى مجتمع أي حضارة تزدان لغته وأدب حياته اليومية ببعدين وجود الله واستحضاره مثل ما نرى في
المجتمع الإسلامي، إن هذا اليقين والاستحضار هو أول ناحية عالمية مشتركة لمسلمي الهند أصبحت لهم شعاراً ولهم علامة.

السمة العالمية الثانية، التوحيد:

وميزة حضارتهم العالمية الثانية وسمتها عقيدة التوحيد، وهي تبدو واضحة في كل جانب من العقائد إلى الأعمال، ومن العبادات إلى الاحتفالات، فمؤذن من مآذن مساجدهم في اليوم والليلة خمس مرات أنه لا إله إلا الله، وتصان بيتهن من شعائر الشرك، وطبق مبادئ الإسلام حرمته له الصور والتماثيل والدمى، حتى تجب مراعاته في ألعاب الأطفال، واحتفالات دينية كأنه أو العيد الوطني، أو كان يوم ميلاد للقيادة السياسيين أو الأئمة الذين، أو احتفال برفع العلم، فلا يجوز لمسلم أن يطأطئ رأسه أمام التماثيل، وأن يمثل تجاهه متخشعًا، أو يقلدها قلادة الزهور فإن ذلك يعارض حضارته الإسلامية، وكل مسلم يشتكي بأهداب حضارته الإسلامية، ويتمسك بها، يحترز منه ويجانبه في أي بلد كان، وإن تجاوز حدود التوحيد والشريعة الحجازية وتقليد قوم في الأسماء والاحتفالات والقسم، وتجب الصلاخاء وإكرامهم وإظهار التوافع لهم، يساوي المروق من الإسلام والخروج عليه.

السمة الثالثة عقيدة كرامة الإنسان والمساواة الإنسانية:

والميزة الثالثة العالمية للحضارة الإسلامية في الهند هي
الحضارة الإسلامية في الهند

تصور كرامة الإنسان وسئادته وعقيدة المساواة الإنسانية التي فطر عليها المسلم وربي بها، فصارت طبيعته الإسلامية، ومن نتيجة هذه العقيدة الطبيعية أن المسلم لا يعرف الفوارق الطبيعية والمنبوذ، فلا يتردد لأيام ما في ذلك، فيشارك مسلماً في أكله ويلح على أئناس آخرين أن يواكلوه، ويأكل عدد رجال طيب الخاطر في إنا واحده، ويأكلون سوء الآخر من الطعام والشراب، يصلون في المسجد متكافين لا تمييز بين شريف ووضع، ويمكن لعالم ووضع في النسب أن يؤم الناس، ويتجلى كبار الأشراف ذوو الأحاساب والأنساب والحكام ذوو المكانة العالية إلى أن يقتدوا بهذا الإمام.

السمات الفرعية:

هناك سمات فرعية للحضارة الإبراهيمية عدا ما أسلفناه من السمات المبتدئة والأساسية يتحلى بها جميع المسلمين في العالم، أمثال إعمال اليدين في الأمور الحسنة والأكل بها، وشرب الماء بها، والإعطاء والأخذ بها، وقيود في اللبس، مثلً أن يكون اللباس سارآً، وستر الركاب وكشف الكعيبين، وتحريم الحرير على الرجال، والعناية بالطهارة، وترى التمسك بهذه القواعد والقوود والعص عليها بالوقوع في كل مكان تبقى فيه الحضارة الإسلامية في صورتها الأصيلة، وأما الخروج عليها فهو ينتج عن ضعف الحضارة الإسلامية والتأثير الخارجي.
موقف المسلمين إزاء الفنون الجميلة:

ومن ميزات هذه الحضارة ورزانتها وحب الحق، وموقفها الحازم، وجهة نظرها المعتدلة إزاء الفنون الجميلة، وتقديرها للصفاء والجودة، والنظافة والجمال، غير أن هذه الحضارة تحرم بعض ما تسميه أوربا من الفنون الجميلة (Fine Arts) الرقص، ورسم صور الحيوانات ونحت التماثيل، كما تأمر بالحذر والاعتدال في بعضها، مثلَ الغدء واللحن، ويجوز أن يتمتع به طبقاً لبعض القيود الخاصة، أما الانهيار في فعارض روح الحضارة الإسلامية، وأهدافها وغاياتها، وتضر بخشية الله والاهتمام بالآخرين ومعياره الخلفي الذي يرجى من مسلم أن يتصف به، ولو لم تكن هذه المحاسبة من الشريعة الإسلامية ورقابتها لما كان المسلمون قائمين على مركز الاعتدال الذي يمتازون به من بين الشعوب التي كانت ولا تزال معروفة بشغفها بالفنون الجميلة التي هي جزء من عبادتها منذ قدام.

الأخلاق الإسلامية:

ومن أخلاقيات الإسلام التي أثرت في حضارة المسلمين بوجه خاص، ومنحتها وحدة وتماثلًا عالميًا: القرى، وسعة الصدر، وإطلاق اليدين، وإنما ذلك ذوق طبيعي ونفسية خاصة لمؤسس هذه الحضارة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد خص الله
الحضارة الإسلامية في الهند

ذكره في القرآن عندما ذكره: "هل أنتم تعلمون كيف ضربتم اليمين؟".

وفي سائر الأمم والشعوب التي تنفصل نسبيًا أو عقيدة بسيدة إبراهيم عليه السلام، وتأثر بحضارته، يتجلى الاتجاه العام القوي للضيافة والقرى، الذي لفت انتباه كل مؤرخ ورحلة في كل عصر، فسجلوها في مذكراتهم وانطباعاتهم.

ونرى اليوم أيضاً لمعة هذه الضيافة القديمة في مجتمعات الشرق الأوسط التي لم تفقد شخصيتها المميزة رغم الحضارة الغربية، أن الحفاوة التي قول بها ابن بطوطة وابن جبير وضيافتهما أنتسهم الشعور بالغربة في السفر، ويمتاز المسلمون الهنود اليوم مع كونهم بعيدي العهد عن مركز الحضارة والدعوة الإسلامية، بضيافتهم وذوقهم من بين الشعوب الأخرى وسلسلة الضيوف في البيوتات الإسلامية عادة تستمر اليوم بأقدار مختلفة، ورغم تأثير الثورة الاقتصادية يتهلل وجه كل مسلم بقدوم الضيوف، ويرى استضافته سعادته له وسمة من سمات الإسلام.

تأثير الهند في الحضارة الإسلامية:

من المعالم والآثار التي تتجلى في حياة المسلمين وحضارتهم بوجودهم فيها وتوطينهم منذ قديم، وتأثيرهم بالمجمع الهندي واتصالهم بشعوب مختلفة، لغة "أردو"
الفصيحة السهلة السلسة، وهي مزيجة من الكلمات العربية والفارسية والتركية والسنسكريتية... وهي معروفة بدقة الخيال والعذوبة والجدية، والثاني زي الأشراف وأهل البلدان الذي من مبتكرات الهند، ويشكل نموذجاً رائعاً للذوق الحسن رغم الأسلوب والمجتمع، والحضارة اللتين تكونتا في دلهي، ولكنهما وحيدر آباد والبلدان الرئيسية في العصر المغولي الأخير، يبدو فيها الذكاء وظرف الأناقة والثقافة جنبًا إلى جنب، والاحترام البالغ للوالدين، ومبادئ الأدب والحياة الخاصة أمامهما، وبالغة النساء في النسيم، والقوانين الخاصة لحياتها، هذه خصائص يجهل كثيراً منها مسلمون الدول الأخرى، وهي من معطيات شؤون الهند الخاصة ومصالح الطبقة الحاكمة والتأثيرات القديمة بصورة عامة.

ثم الحرص على المصادرة في نفس الأسرة، وذوي أسبابهم وأكيفائهم، وعدم خروجهم عن نطاق الأسرة الخاصة ومعاييرها من ميزات الحضارة الإسلامية في الهند، أثرت فيها كثيراً المثل النسبية الهندية ولتفرقة الأسر والسلالة والقبائل بصورة دائمة، ومسلمون خارج الهند الذين لا يهتمون في العلاقات العائلية إلا بالشرف والمنزلة، ولا يلتزمون بالتزوج في أسرة وعشيرية واحدة، ينظرون إلى مسلمي الهند بنظرية يملؤها الإعجاب والدهشة، ويرونها ميزة للهند، إن الاعتناء المفرط بمراسيم
الحضارة الإسلامية في الهند

الزواج والحزن، والاحتفالات، والإنفاق في مناسبات خاصة فوق الطاقة والحشمة، والبذخ، تعد كذلك من خصائص الحضارة الهندية والمجتمع الهندي، تأثر بها المسلمون في هذه البلاد، رغم أن المنهج الإسلامي يقضي البساطة في مثل هذه الأمور.

وذلك التمييز بين السيد والخادم كأنهما من جنسين مختلفين ومعاملتهم كمعاملة المنبوذين في بعض الأحيان، كلها من رواسب الحضارة الإسلامية في عهد الانحطاط في الهند، ونتيجة لنظام الإقطاعية وتصورات الحاكمية وتأثير الحضارات الأخرى ومن خصائص الهند، وكذلك التفريق الدائم بين القبائل على أساس المهن والحرف.

قد أتحفت الهند وتراثها الحضاري والتمدن للمسلمين بهدايا ثمينة لا تنفك عن الحضارة الإسلامية الهندية، وأنها ملك يفخر به ولا نجد له نظيراً في الدول الإسلامية الأخرى، وهي مقاومة مسلمي الهند لتيارات الحضارات الغربية، وصمودهم في وجه غزوها العدواني بنجاح وقوة، وحفظهم لكيانهم وشخصياتهم الممتازة، وتفكيرهم العميق وتصوفهم، وكل ذلك نتيجة مختلف العوامل الاجتماعية والفكرية والحضارية التي ظلت تستمر جذورها في هذه البلاد منذ قرون، فوضعوا أساسًا لحضارة إسلامية هندية بديعة، وأوجدوا طبيعة كانت عصارة
الحضارة الإسلامية العالمية والحضارة الهندية وفلسفتها في وقت واحد.

وذلك قبل التصورات والأخلاق الإسلامية، تطورات وتغييرات إقليمية، ومع أنها قليلة بالنسبة إلى الحضارات الواردة الأخرى، والأمم الظاهرة التي اتصلت بالحضارة الهندية القديمة، أثارت مسلمًا متألماً وحسًا في العصر الأخير مثل الشاعر الإسلامي الكبير خواجه ألطاف حسن حالي فعاتب الهند على ذلك (1) والحقيقة أن مجرد تأثير حضارة في حضارة وعدم تأثرها بها حادثة يندر تظهيرها في تاريخ العالم فإنه لا يطبق فطرة الإنسان والمصلحة، فإن الحياة الإنسانية تعترف بالمبادئ النبيلة للاخذ والعطاء، وفي ذلك يكمن سر تقدمها وارتقائها وسعتها وتنوعها.

* * *

(1) راجع قصيدته «شكوه هند» (عتاب الهند) في ديوانه.
الحركة العلمية القديمة في الهند
مراكزها ومزاياها

منهج التعليم القديم ومراكزه العلمية:
إن تاريخ منهج التعليم وإعداده، وأدواره التي مر بها وتطوره في العهد الإسلامي طويل وعسير كذلك، فإن متابعة هذه المراحل التعليمية تتطلب تحليل الظروف الممتدة إلى ثمانية قرون، وتنتشر مواد هذه الدراسة ومصادرها في كتب الترجم والتاريخ والسير وأقوال السلف الصالحين ومذكراتهم، كما يطول تاريخ أساتذة هذا المنهج، والذين رسموا هذه الخطة التعليمية، والمعاهد التعليمية التي قبّلت هذا المنهج الخاص، فقد أسس الأمراء المسلمين، والسلاطين المسلمون، ومحبو العلم والأغنياء الذين قاموا بتمويل هذا المنهج وإدارته، مدارس في القرى والمديريات، وأنشئوا شبكة للمدارس، ولا يوجد
الحركة العلمية القديمة في الهند

اليوم وسيلة لإستقصاء هذه المدارس، واستخراج تفاصيلها (1). وليس في وسع هذا الكتاب كذلك استقصاء التطورات التي طرأت على هذا المنهج التعليمي في مختلف العصور، والتعديلات التي أجريت فيه حسب الظروف والمقتضيات، والأسر والأماكن التي احتلت المكانة المرموقة، والرئاسة، ومحل القيادة في تسيير هذه الشبكة وترتيتها، وإنه لموضوع يتطلب تأليف كتاب مستفيض محقق، ونقدم هنا تلخيصاً بالإجراء بعض تعديلات يسيرة لمقال كتب العلامة عبد الحفي الحسني أحد كبار مؤرخي العصر الإسلامي في الهند، ويكشف المقال عن بعض مزايا هذا النظام الذي ساد البلاد كلها، ومراحل تطوره التي أغفلتها كتب التاريخ العام فيقول في مقاله (2):

«إن التاريخ يدلنا على أن العلم وصل إلى هذه البلاد مع الغزاة»

(1) وقد بذل العلامة عبد الحفي الحسني في كتابه الجليل "جنة المشرق" جهده للتنقيب عن هذا النظام السائد، الذي تشير إليه كتب السير والتاريخ بصورة غير مباشرة، تبلغ عدد المدارس المذكورة في الكتاب والمعرفة فيه 103 مدرسة، ويجب بالذكر أن هذه المدارس تضم مدرسة نسائية أيضاً، وكان من مساعدي هذه المدارس ومديدها عدد من الأموريات أيضاً.

(2) مجلة "الندوة" (العهد الأول 1909 ج؛ 6 عدد) وقد أفرد هذا المقال للنشر باسم "منهج التعليم في الهند وتطوراته".
الحركة العلمية القديمة في الهند

وأن كل تغير أو تحول وقع في بلاد ما وراء النهر والعراق حيناً بعد حين أثر على منهج التعليم السائد في الهند كذلك.

السند وملتان:

لقد استنارت صحراء السند وملتان بالعلم قبل كل بلد آخر، وامتد بريق العلم إلى أن شمل الهند كلها بنوره، وقد استفاد ملوك غزنين بهذا النور، وسبقوا إليه عندما حولوا لاور عاصمة للهند.

دهلي:

وتدقق العلماء ورجال الفن إلى دهلي عندما نالت العلوم التشجيع من البلاط بعد فتح دهلي، فاجتمع عدد من العلماء العباقرة في هذا البلد، فأصبحت المدينة مورداً عذباً للعلم يرد إليه المتطوعون للعلم ورواده من كل فج عميق للتعليم والاستفادة.

فكانت دهلي في عهد غياث الدين بلبن، وكل بقعة منها تمثل مآثر قرطبة وبغداد، وتحيي ذكرياتها لوجود أفذاذ من العلماء مثل شمس الدين الخوارزمي، وشمس الدين قوشجي، وبرهان الدين البلخي، وبرهان الدين البزاز، ونجم الدين الدمشقي، وكمال الدين زاهد، وغيرهم من كبار العلماء.

وفي عهد علاء الدين الخلخي اجتمع في المدينة علماء يزيد
الحركة العلمية القديمة في الهند

عددهم على 46 عالماً، أمثال ظهير الدين بهكري، وفريد الدين الشافعي، وحميد الدين مخلص، وشمس الدين، ومحبي الدين الكاشاني، وفخر الدين البانسوي، ووجه الدين الرازي، ونجم الدين القدام، وذكر المؤرخ ضياء الدين البرني المشهور بتاريخه، أنه لم يجتمع مثل هذه النخبة من العلماء في بلد آخر في العالم.

وكان في عهد محمد شاه تغلق علماء أمثال معين الدين العمراوي، والقاضي عبد المقتدر، ومولا نا خواجة، والشيخ أحمد التهانيسي، الذين روا مثل الشيخ شهاب الدين الدولة آبادي، فصار ملك العلماء، فكان يشار إليه بالبانان، وتشد إليه الرحال.

ووصل في عهد فیروز شاه الشيخ جلال الدين الرومي، وأسكن إليه منصب عميد المدرسة الملكية، ووصل في نفس العهد الشيخ نجم الدين السمرقندی، فسقى البلاد بعلمه، وروى المسترشدين.

وفي عهد سکندر لودی وصل إلى ملتان الشيخ عزیز الله التلخی، والشيخ عبد الله، فرفعا مستوى علم المنطق والفلسفة وعززا المنهج وحسناه.

وفي عهد الملك التیموری أكبر قدم الشيخ فتح الله شیرازی
الحركة العلمية القديمة في الهند

 الملقب بعبيد الملك، وطار صيته في البلاد، وفي نفس العهد نال فن الطب الأهمية القصوى بورود الطبيب شمس الدين، وابن أخيه الطبيب علي الكيلاني، كما خدم الشيخ عبد الحق علم الحديث فطبى الأفاق.

وفي عهد شاه جهان وعالمكي، لمع نجم مير زاهد، فسخر القلب، وبحر العيون بباحثيه ومناقشاته، ونكته الدقيقة، فصار يعد كأنه مؤسس منهج التعليم النظامي، فكان من تلاميذه قاضي مبارك، وأسرة الشيخ ولي الله الدهلوي الشهيرة التي تضم الشيخ عبد العزيز، والشيخ رفيع الدين، والشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الحي، والشيخ محمد إسماعيل، والشيخ محمد إسحاق، والشيخ رضوان الدين، ومن تلاميذه هذه الأسرة النجباء المفتي صدر الدين خان، والشيخ مملوك العلي الذين يعدون أساتذة الهند، وشيخ العصر، ويرجع إليهم أصل جميع نظام التعليم المعاصر.

لاهور:

أحرزت لاهور قصب السبق في العلم وازدهاره، ولكن تطور دهلي أحمد حركة العلم في لاهور لبعض الوقت، ثم استعادت لاهور دورها فازدهرت العلوم فيها بوصول جمال الدين تله، وكمال الدين الكشميري، والمفتي عبد السلام، والملا عبد الحليم السيالكوتي، وأمثالهم من مشاهير العلم، فتوجه
الحركة العلمية القديمة في الهند

104

إليها ألفون من طلاب العلم وخطابه، واغترفوا من هذا المنهل.

جونبور:

أنجبت جونبور برعاية وتشجيع السلاطين الشرقيين، علماء أمثال الشيخ أبي الفتح شهاب الدين الدولة آبادي، والشيخ إله داد، والشيخ محمد أفضل أستاذ الملك، والعلامة محمود صاحب «الشمس البازغة» وديوان عبد الرشيد، والمفتي عبد الباقى، وملاء نور الدين، ففتحوا البلاد كلها بعلمهم، وطبق صيتهم الأرجاء كلها.

كجرات:

ونبغ في كجرات الشيخ محمد طاهر الفتني صاحب «مجمع بحار الأنوار» والشيخ وچيه الدين العلي الكجراتي، وملاء نور الدين، وغيرهم، فرووا شجرة العلم، وفي هذا العهد ترعى القاضي ضياء الدين من سكان نيوتنى في كنف الشيخ وچيه الدين، ونال التربية منه في كجرات، وانتقل إلى وطنه بعد نبغه في العلم، فاستفاد منه العلامة لطف الله، ونبغ في تلامذته الشيخ أحمد صاحب «التفسيرات الأحمدية» و«نور الأنوار» المعروف بملاجيون، وملاء علي أصغر، وملاء محمد أمان، وقاضي عليم الله، وكان كل منهم رئيس مذهب وطريق، وانتهت إليهم رئاسة التدريس في عهدهم.
الحركة العلمية القديمة في الهند

إله آباد:

وفي إله آباد رفع راية العلم والتدريس الشيخ محب الله، وقاضي محمد آصف، والشيخ محمد أفضل، والشاه خوب الله، والشيخ محمد طاهر، وال حاج محمد فاخر زاير، والمولوي بركت، والمولوي جار الله، وعلماء آخرون خدموا العلم فنفتقد سوقه على يديهم مئة سنة تقريباً.

لكهنؤ:

وانتقلت هذه التحفة السنوية أولًا إلى لكههنؤ من جونفور بفضل الشيخ أعظم أبو البقاء الكرماني، ثم تولى هذا المنصب الشاه بير محمد، وكان تلميذه غلام نقشند، فوعز مجال الإفادة، وجذب الأنظار، وذاع في عهده صيت الشيخ قطب الدين السهالوي الذي كان عالماً كبيراً مشهوراً في طريق الشيخ عبد السلام الديوي، والشيخ محب الله الإله آبادي، وبعد شهادة الشيخ قطب الدين خلفه في نشر العلم وتخريج الطلبة ولده ملا نظام الدين، وانتهت إليه الإمامة في التدريس وتربيه الأساتذة، وتحولت لكههنؤ إلى مركز نشاط علمي، فأعد منهجاً للتدريس قبلته جميع المدارس قبولاً عاماً مرضياً، ونبع في أسرته ملا حسن، والعلامة عبد العلي المعروف ببحر العلوم، وملا مبين، والمفتي ظهور الله، ومولوي ولي الله، والمفتي محمد
الحركة العلمية القديمة في الهند

106

أصغر، والمفتي محمد يوسف، والمولوي نعيم الله، والمولوي نور الله، والمولوي عبد الحكيم، والمولوي عبد الحليم، والعلامة عبد الحي، وأمثالهم، فكان كل عالم منهم نابغة عهده وفريد نوعه، يندر مثاله في أسرة أخرى.

المناطق الريفية في شمال الهند:

ولم يتأ أحد من هؤلاء العلماء الذين تعلموا على شيوخ هذه الأسرة العلمية جهداً في نشر العلم، فانتشروا في الأرض، وجابوا البلاد، فكان منم حملوا لواء الشيخ قطب الدين الشمس آبادي، وقبط الدين الكوبامثوي، ومحب الله البهاري، وأمان الله البنارسي، وملا كمال الدين، ومولوي بركت، ومولوي حمدى الله، ومولوي ياد الله، ومولوي فضل إمام، ومولوي فضل حق، وفليزة كبد المولوي عبد الحق، كانوا جميعاً كباقة زهور في هذه الحديقة العلمية.

فانتشر العلم في سائر أنحاء ولاية الهند الشمالية المعروفة في ذلك العهد بـ«أوده» وتفقت سوقه، فلم يبق مكان إلا وقد استنار بالعلم والمعرفة، وكانت أهم هذه الأماكن جايس، وهرجام، ونيوتيني، وكوبامثو، ويلجرام، وسندلية، وكاوري، فقد أنجبت هذه الأماكن العلماء بكثرة لا يوجد مثيلها في أماكن أخرى.
الحركة العلمية القديمة في الهند

أدوار مختلفة لمنهج التعليم:

ويجدر بنا أن نقسم مراحل المنهج التعليمي إلى أربعة أدوار توظيفاً للسهولة، أو أن نجمع هنا تفاصيل الكتب الرائجة في ضوء ما تذكره طبقات المشايخ والشعراء، والمذكرات أو مجموعات الكتب والخطب(1).

الدور الأول:

يبدأ من القرن السابع الهجري وينتهي في القرن العاشر حيث بدأ الدور الثاني، فكانت دراسة الفنون الأتية لازمة في هذا الدور، وهي الصرف والنحو، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والمنطق، والكلام، والتصوف، والتفسير، والحديث.

وعندما ندرس أحوال العلماء في هذا الدور نرى أن الفقه وأصول الفقه كان مقياس الفضيلة، كما يعتبر المنطق والفلسفة مقياس العلم في هذا العصر.

الدور الثاني:

وصل الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من ملتان في أواخر

(1) حذفنا أسماء كتب المنهج التعليمي لأنها لا تخص إلا بروال الفنان، فمن أراد التفصيل فليراجع مقدمة "الثقافة الإسلامية في الهند".
الحركة العلمية القديمة في الهند

القرن التاسع الهجري (1)

الشيخ عبد الله دهلي، والشيخ عزيز الله سبهل، ورحب بهما الملك سكندر لودهي ترحيباً حاراً، حتى إن الملك نفسه كان يحضر مجلسهما، وكان قد بلغ من احترامه وإجلاله لهما أنه كان يجلس في زاوية من المسجد لكي لا يحدث قدوته اضطراباً في مواصلة الدرس، وكان يستمع إلى محاضرة الشيخ باهتام وشوق، ثم يتشرف بلقاء الشيخ عبد الله بعد انتهاء الدرس.

وذاع صيت الشيخين بسرعة في أنحاء الهند لما كانا يتمتعان به من تفوق علمي، ويتصفان بكمال وفضل مروقين، ويتميزان بهما عن أقرانهما، وتشجيع الملك، وأجبرت تعديلات في منهج التعليم، ورفعا مستوى الفضيلة، فأدخل من مؤلفات القاضي عضد، المطالع والمواقف، وكتاب مفتاح العلوم للسكاكي، فأصبحت هذه الكتب متدلالة بسرعة.

وفي هذا العهد نالت شروح المطالع والمواقف (2) القبول العام بمساعي تلامذة مير سيد شريف، كما أدخل تلامذة تفطاني كلاهما كان من سكان تلبه الواقعة في ضواحي ملتان.

(1) كتاب في المنطق للمتهين.

(2) كتاب في المنطق للمتهين.
الحركة العلمية القديمة في الهند

كتاب المطول والمختصر (١) والتلويح (٢) وشرح عقائد نسفي (٣).
وضم المنهج في نفس الفترة شرح الوقاية (٤) وشرح ملا جامع (٥).

وارتحل إلى الحجاز أكبر عالم في عصره وهو الشيخ عبد الحق المحدث من الهند، ومكث في الحجاز ثلاث سنوات وأكمل دراسة الحديث النبوي الشريف على علماء الحرمين الشريفين، ونقل هذه الثروة العلمية، فعكف هو وأولاده النبغاء على نشر هذا العلم، ولكن لسوء الحظ لم ينل هذا العلم القبول في عهدهم، فكان هذا الشرف حليف الشيخ ولي الله الدهلوي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الدور الثالث:

كان التغيير الذي حدث في منهج التعليم في الدور الثاني قد أثار آمال الناس وطموحهم ورفع مستوى العلم، فطمحوا إلى

(١) في فن المعاني والبيان، ولا تزال هذه الكتب مدرجة في المنهاج.
(٢) في أصول الفقه.
(٣) في علم العقائد.
(٤) في الفقه الحنفي.
(٥) كتاب في النحو مزيج باستدلال منطقي.
رفع هذا المستوى إلى درجة أعلى، فكان قدم الشيخ فتح الله الشيرازي بامتناعاً جديداً، وحافزاً على التقدم في التعليم في المعاهد التعليمية، ولقب البلاط الأكبري بعبد الملك، فقبل العلماء التعديلات التي أجريها الشاه فتح الله الشيرازي في المنهج الدراسي.

من الظلام أن ننسى في هذه المناسبة خدمات الشيخ وجيه الدين العلي الكجرائي، فقد كان هذا الرجل الصالح تلميذاً للمباحث المحقق الدوائي طريق واحد، فأدخل في المنهج مؤلفات المتأخرين، فلم تكن منطقة كجرات وحدها المتمتعة بهذا السيل العلمي، بل وصلت روافده إلى الهند الوسطى، وقد كان القاضي ضياء الدين من سكان نيوتني فنقل هذه الثمرة إلى هذه المنطقة من كجرات، فجناها الشيخ جمال ونشر هذه التحفة إلى أقصى المناطق، وكان الملا لطف الله تلميذاً رشيداً للشيخ جمال، فقرأ عليه ملا جبون صاحب «نور الأئنور»، ومال علي أصغر، والقاضي عليم الله، ومال محمد زمان، وغيرهم من العلماء، وكان كل عالم منهم صاحب مدرسة وسلسلة، ولكن لم ينل هذا المنهج القبول العام إلا بجهود العلامة فتح الله الشيرازي الذي انتشر تلامذته وتمامته تلامذته في أنحاء الهند المختلفة، وروجوا هذا المنهج.

كان المفتى عبد السلام من أجل تلامذة فتح الله وقد درس
الحركة العلمية القديمة في الهند

أربعين سنة في لاور، وأفاد ألوفاً من طلاب العلم، ولكن لم ينقل الشرف العلمي، والخلود العلمي إلا بضعة طلبة من ألوف منهم، وكان من هؤلاء الأمجاد الذين نالوا هذا الشرف والامتياز، الشيخ حب الله من إله آباد، والقاضي عبد السلام من ديوه، فقرأ على الشيخ عبد السلام في لاور وأنشأ مركزهما، وكان الشيخ قطب الدين السهالوي تلميذاً لهما بواسطة واحدة، وهو والد الشيخ نظام الدين مؤسس المنهج النظامي الشهير.

كان الشيخ ولي الله (م 176 هـ) آخر وأشهر علم في هذا العصر، وقد زار الشيخ ولي الله الدهلوي الحجاز، وقرأ الحديث الشرف على الشيخ أبي طاهر المدني عدة سنوات وأكمل الدراسة، ثم نقل هذا العلم إلى الهند، وعكف على نشره وخدمة ونشاط فيه فخلف أثراً خالداً، ولا يزال يلمس رغم كساد السوق، ولا يكون مبالغًا إذ قلت إن درس الصحاب الستة وتدريبها في الهند مدين كلياً لخدمته، ويرجع أصله إلى عهده، وقد بذل الشيخ ولي الله وخلفه الصالحون البررة حياتهم كلها في خدمة هذا العلم ونشره.

وأعد الشيخ ولي الله الدهلوي حسب ذوقه وفكره منهجاً جديداً، ولكن مركز الثقافة العلمي في ذلك العهد كان قد انتقل لأسباب سياسية من مدينة دلهي إلى كهفه حيث نال المنطقة والفلسفة قولاً وأهمية، فلم يحظ هذا المنهج بالقبول والشعبية.
الدور الرابع:

يبدأ الدور الرابع من القرن الثاني عشر الهجري، وقد قام بتأسيس الشيخ نظام الدين بقوة وعزم وهمة، فتفاق جميع المناهج وقهر الألباب، فلم ينهاض منه مهج آخر، ولا يزال يحتفظ بقوته وجاذبيته ولم ينقص منه شيء.(1)

* * *

(1) هذا الحكم كان يطبق على الظروف السائدة قبل خمسين سنة، وقد قادت ندوة العلماء حركة تغيير المناهج الدراسية، وملكت جهود القائمين بها بالنجاح، وأخذت المعاهد تعيد النظر في مناهجها الدراسية وتجري تعديلات جوهرية فيها.
لم يكن نظام التعليم القديم متزناً عن النقائص ومواظب الضعف كلها، فقد كانت عدة من نواحيه تحتاج إلى الإصلاح والتنقية والتفتيش من الناحية الفنية، لكنه كان يحمل بعض الخصائص ومعاكمات خاصة بفضل ما كان يتسم به المسؤولون عنه والداعون إليه من صفات شخصية وروح دينية وطبيعة امتزاجية.

فشرت إلى ذلك النظام تلك الخصائص الشخصية التي تعود النظام الجديد للتعليم، ونظر فيما يلي بعض هذه الخصائص البارزة التي نجدها منتشرة في كتب التاريخ، وقد انتقلت هذه الخصائص جيلاً بعد جيل إلى طبقات المعلمين، والمدرسين، وتلامذتهم.

الخلاص والإيضاح:

كانت الميزة الكبرى التي كان يتسم بها الأساتذة في العهد الماضي والتي كانت شعارهم الخاص، هي الإخلاص والإيثار،
وحيث إن الثواب في الآخرة للتعليم والتعليم والفضلة الدينية للمعلم والأساتذة كان مرتسماً في مخيلتهم، أصبح ذلك عقيدتهم وجزءًا من إيمانهم، فكانت أغلبيتهم الغالبة تسعى من وراء التعليم والتعليم إلى نيل مرضاة الله، وحصول الثواب والأجر في الآخرة، وكان يعتبر هذا الشغل أفضل عبادة وسعادة عليها لها، فخلد عدد كبير من هؤلاء الطالبين للعلم آيات الإثارة والزهد، والعيش بالكفاف، والتركيز الكامل على شغفهم العلمي، يقاسون في ذلك الجوع والفقر، ويحملون كل مكروه ومضايقة بطرب الخاطر، وإن تاريخ العلم وطبقات العلماء في الهند، حافل بذكر هؤلاء الأساتذة العظام، وزدهم في الحياة وإيثارهم، والفقر والجوع الذي احتلواه في حياتهم، وابتعادهم عن ملذات الحياة، ومن بين القصص المؤثرة للإثارة وتحمل المكروه نورد هنا قصة غريبة تدل على ما أرسلنا.

يحكي مؤرخ الهند مولانا غلام علي آزاد البلكرامي في «مآثر الكرام» قصة لمحدث بكرام الشهير، والإستاذ الكبير، مير سيد مبارك (م 1115 هـ) نقلًا عن أستاذه مير طفيل محمد:

«حضرت مرة في مجلس مير مبارك، وكان قد نهض من مجلسه للوضوء، إذ زلقت قدمه وسقطت، فأسرعت إليه وأخذت بيده، وأردت أن أجلسه، وقد أغمى عليه، فلم أفاق سأله عن سبب هذا الضعف والنقاهة، فلم يقل كلمة وظل صامداً، فلما
أصررت عليه، قال إنه لم يأكل لقمة واحدة منذ ثلاثة أيام، ولم يتضح أمر مير مبارك على أحد، لأنه كتم أمره، ولم يقبل شيئاً من أحد، وقد أثر ذلك على نفسي ورق له قلبي، فذهبت إلى بني وأحضرت لأستاذي طعاماً كنت أظن أنه المرغوب لديه، فلما رأى الخوآن بين يديه أظهر سروره، ودعا لي بخير، ثم قال: بارك الله فيك وفي طعامك، ولكن هل تقبل عذري فيه يا ولد؟ ثم قال بعد برحة: إنه طعام إشراف لذا أصلح عليه الصوفية ولو أن مثل هذا الطعام مباح باعتبار الفقه، وأن الشريعة تبيح أكل الميت بعد ثلاثة أيام من الجوع، لكن في مذهب التصوف والزهد لا يجوز أكل طعام الإشراف (1).

سمعت كلام أستاذي فلم أقبل شيئاً، ورجعت عن مجلسه، وحملت الخوآن، وتوقفت برهة على الباب وانتظرت، ثم عدت ثانية أحمل الصينية فوق رأسي وقلت: هل كنت يا سيدي تتوقع هذا الطعام بعد رجوعي؟ قال: لا، قلت: إذا لا حرج الآن في تناوله، وأعجب أستاذي بكلامي وحجتي، وقال: لقد غلبتني بذكائك وتأويلك، ثم أكله برغبة وشوق (2).

(1) طعام الإشراف: هو الطعام الذي أشرفت إليه النفس وتوقعه الآكل.
(2) مأثر الكرام ص 96 ـ 97.
إن هذه القصة رغم كونها غريبة وغير عادية، ليست فريدة من نوعها في تاريخ الهند العلمي والديني، الذي هو حافل بقصص الأساتذة وزهدهم وقناعتهم، حتى إن الفقر والجوء أصبح ميزة هذه الطبقة وطبيعتها (1).

ولا تقل أثراً قصة أخرى تدل على الإيثار والعمل بإخلاص وتركيز كامل للمتعلمين، يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر للهجرة.

كان الشيخ عبد الرحيم (م 1234 هـ) يدرس في رامبر، وعرض عليه والي منطقة «روهيل كهند» الإنجليزي المستر هاكس منصب التدريس في كلية «بريلي» براتب شهري يبلغ مئتين وخمسين روبية (تقدر قيمته الآن بأكثر من ألفي روبية) ووعده بأن راتبه سيراد فيه ويرفع مستواه، فاعتذر قائلاً بأن امانته تدفع إليه عشر روبيات، وستوقف هذه المنحة، فقال له هاكس: إن عرض عليه أضعاف هذا القدر وما عشر روبيات أمام مئتين وخمسين روبية؟، فقال: إن في بني شجرة سدر حلوة وهي محبة إلى كثيراً، فكيف السبيل إليها في بريلي؟ ولم يتطرق

(1) نزهة الخواطر ۲، ومآثر الكرام للبلكرامي، وتذكر علاماء الهند للشيخ رحمن علي، و«نظام تعليم وتربيت» للعلامة السيد مناظر أحسن الكيلاني.
ذهن هذا الإنكليزي إلى حقيقة الأمر الذي كان يدور بخليد الشيخ
فقال: إنني سأُرتب لإيصال ثمرة هذه الشجرة إليك في بريلي ،
فقال: إن لي تلاميذ في رامبور ، فكيف أتركهم ، وسأحرم فرصة
خدمتهم ، وحاول الإنكليزي إقناعه ، فقال: إنني سأقدم إليهم
المنح الدراسية وسواحلون دراستهم في بريلي ، ولم يبق في
جعبة الشيخ إلا سهمه الأخير ، فأطلقه وقال: صحيح ما تقول ،
ولكن ما يكون جوابي يوم القيامة على الارتقاء بالتدريس؟ (1)

التكريس على العمل:
إنه انهاك الأساتذة والمعلمين في العهد الماضي في
تدريسهم ، واستغراقهم فيه كان قد بلغ أقصى حد ، لا يمكن
تصوره بدون مثال ، فقد كان التعليم والتعلم غذاء روحيًا لهم
وعبادة ووردًا لهم ، فكانوا يخصصون معظم أوقات حياتهم
وجل وقت نهارهم وليلهم للتدريس ، فدرس ملك العلماء
العلامة ولجه الدين الكجراتي 15 - 17 سنة ، والشيخ
عبد السلام اللاهوري ، والملالي عبد الحكيم السبلكوتي ،
والشيخ علي أصغر الفنوجي درسوا 60 سنة ، والشيخ أحمد
الأميتهوي المعروف بملأ جيوه درس طول حياته وحتى في آخر
يوم حياته ، وقس على ذلك .

(1) مما ذكر العالم للمؤلف نقلاً عن نزهة الخواطر ص: 32.
كان جميع أوقات المعلمين باستثناء الحاجات البشرية اللازمة والكفاية من الراحة تصرف للتدريس، فكان ذلك الشغل الشاغل لهم، وقد درس بعضهم وحالتين أثناء الطعام، والسير في الطريق، يقول الشيخ عبد القادر البدايوني عن أستاذه عبد الله البدايوني: إنه كان يذهب إلى السوق بنفسه لشراء حاجاته، وكانت جماعة الطلبة ترفقه فكان يدرسهم في الطريق (1).

كان العالم الجليل للعهد الأخير العلامة عبد الحي الكهنوي يخصص لبعض الطلبة وقتاً قبل صلاة الفجر أيضاً، وكان ذلك من عادة بعض الأساتذة القدماء.

الصلات مع الطلبة والعطف عليهم:

كانت تقوم صلات وثيقة بين الطلبة والأساتذة وعلاقات لا يوجد لها مثيل في العصر الحاضر، وفي النظام التعليمي المعاصر، فكانت الطلبة مثل أولاد الأساتذة، بل أغز منهم، يكلفونهم ويشترونهم في طعامهم، وذكر عن المدرس المشهور الحكيم علي الكيلاني وهو من كبار الأطباء في العهد الأكبري، وطبيب أكبر الملكي أنه كان يدرس الطلبة دائماً ولا يأكل الطعام بدونهم (2).

(1) منتخب التواريخ.
(2) تذكرة علماء الهند ص 51.
وكانَت صلة أستاذ الملك الشيخ محمد أفضل الجونبوري مع طلبه أوثيق، فلما توفى تلميذه العلامِة محمود الجونبوري الذي كان يحبه كثيراً ويقربه إليه، صدم صدمة عنيفة لم يحتملكها، يقول الشيخ غلام علي آزاد البلكرامي: «لم ير أحد الأستاذ يبسم أربعين يوماً، وبعد أربعين يوماً التحق بتميذه»(1).

وجه المشهدي صدر الدين خان دعوة إلى ملك العلماء عبد العلي بحر العلوم للتدريس في بوهر (بردوان) وعرض عليه رابعاً كبيراً، فاعتذر بحر العلوم قائلًا: معنى مئة طالب لا أستطيع مفارقتهم بدون أن أتأكد من توفير وسائل طعامهم وإقامتهم، فلما تكلُ فهم المشهدي وتحمل المسؤولية عنهم، توجه إليه، وقرر النواب والإجاه في مدرسة ألف روبة شهرياً له، وكان بحر العلوم يصرف هذا المبلغ كله على الطلبة، لا يصل شيء منه إلى أسرته التي كانت تعيش في لكهؤ، فاضطر ولده (الشيخ عبد النافع) إلى السفر إلى مدراس، وتحدث إلى والده في ذلك لكن والده لم يغير من عاداته وأخفق ابنه وعاد إلى وطنه(2).

إن مثل هذه القصص ليست غريبة في تاريخ العهد الإسلامي في الهند، إنها منتشرة، وقد شهد علماء ذلك العهد وجيته نماذج

(1) مأثر الكرام.
(2) نزهة الخواطر ج7 ترجمة الشيخ عبد النافع اللكهنوي.
العطاء والشفقة من أسرائهما بعينهم.

علاقة الطالب مع أسرائهما:

كان الطالب كذلك مرتبطين بأسائذتهما ارتباطاً وثيقاً، تقوم بينهما علاقة وثيقة، علاقة السعادة والارتباط الروحي، والتعلق القلبي، وقد خلد التاريخ قصة العلامة نظام الدين الكهنوي، فلما ذاع خبر وفاته فقد تلميذه السيد ظريف العظيم آبادي بصره بكاءاً على استاذه، ولم يستطيع تلميذه الآخر السيد كمال الدين العظيم آبادي(1) أن يحتفل هذه الصدمة فوافته المنية، ثم علم أنه حي، وأن الخبر كان مجرد إشاعة، لو أن هذا الحادث نادر الوقوع، لكن وراء الطالب وفداءهم وحبهم العميق مع أسائذتهما، والتفاني فيهم، كان ميزة ذلك العهد، وشعار ذلك الجيل، ويدل على ذلك ما كتبه العلماء في تراجم أسائذتهم.

تشجيع الأمراء والملوك:

وكانت الميزة الأخرى لنظام التعليم القديم أن الملوك والأمراء وولاية الأمر وحكام المدن، كانوا يعتبرون خدمة العلماء المخلصين وأسائذتهما والمريدين الأجلاء، وتوفر راحتهم سعادة وشرفاً لهم، ووسيلة لنجاتهم في الآخرة، وفلاحاً لهم، ويوجد في تاريخ الهند أمثلة كثيرة لهذا التشجيع الملكي للعلم.

(1) نزهة الخواطر ج.6.
والعلماء، فقد حرص ولاة الأمر على إراحة العلماء والمشايخ،
فيقول مؤلف "تاريخ فرشته" (محمد قاسم بيجابوري):
أصيب مرة ملك العلوماء القاضي شهاب الدين الدولة آبادي
بمرض شديد، فذهب السلطان إبراهيم الشرقي إليه ليعوده،
وبعد عيادته والاستطلاع عن صحته، والتدبير لعلاجه طلب
الملك كأسًا من الماء، وأدار الكأس على رأس الشيخ وشربها
ثم قال: يا رب، أنزل البلاء المقدر للقاضي علي، واكتب له
الشفاء(١).
أعرب الإمبراطور أكبر عن حزنه وأسفه على وفاة الأمير
فتتح الله الشيرازي قائلاً:
لو كان الفرنج اعتقلوه، وطلبوا كل ما أملك من ثروة فدية
له، لقد كانت هذه الصفقة رخيصة ورائحة، ولما كانت هذه القيمة
زهرة.
وزن شاهجهان الملا عبد الحكيم السيالكوتي مرتين
بالفضة، والقاضي محمد أسلم الهروي (والد العلماء مير زاهد)
مرة بالذهب، وكانت هذه عادة الملوك القدماء لإظهار احترامهم
وتقديرهم وإجلالهم.

(١) تاريخ فرشته ج ٤ ص ١٧٧، توفي القاضي بعد السلطان في نفس
السنة ٨٤٠ هـ أو بعد عامين في سنة ٨٤٢ هـ.
وقد صور صاحب «الأغصان الأربعة» الشيخ ولي الله اللكي في الطريقة التي قوبل بها الشيخ عبد العلي بحر العلوم لدى وصوله إلى مدراس بالكلمات الآتية:

"لما وصل موكبه إلى باب القصر الملكي، أراد الشيخ أن ينزل، فأشار النواب والإجاه بأن يجلس، وجعل المحفة على كاهلته ونقلها إلى قصره، وأجلسه في محله وقبل رجليه، وقال: ما أسعدني! أن شرفتني ونورت مكاني."

علاوة على الأمراء والملوك والوزراء، كان الأثرياء وأصحاب القطاعات يتسابكون كذلك إلى تكفل المدارس ورجال المدارس، ويعتبرون هذه الفرصة غالية، وسعادة لهم، وإلى همتهم العالية وتشجيعهم يرجع فضل هذه الشبكة للمدارس والمعاهد المنتشرة في البلاد إلى عصرنا هذا، يقول مولانا غلام علي آزاد البلكرامي وهو يصف وضع وليته (أوده) وتفاقس به أحوال الولايات الأخرى للهند:

"كانت مستعمرات الأشراف والأسر العالية واقعة على بعد حوالي خمسة أميال أو عشرة أميال في سائر منطقة (أوده) وإله آباد العاهرة الرئيسية، وقد خصص لهم السلاطين والأمراء والحكام منحة ورواتب ومخصصات لهم وإقطاعات، فعملوا بأموالهم مساجد وأنشؤوا مدارس، وزوايا عاهرة بالأستاذة والمعلمين الذين كانوا لا يألون جهداً في التعليم والتنثيق في أي مكان ،"
وقد أثاروا عاطفة وولدها بالتعليم وحرصاً على نيله، فكان ينتقل الطلبة أفواجاً أفواجاً وجماعات ووحداتاً من بلد إلى بلد آخر، يضعون عصا الترحال حيث وجدوا منهلاً عذباً يروي غليلهم العلمي، ويرفع شؤونهم، ويوفر راحتهم كل من وقته الله وآتاه مالاً وهمة، ويعتبرون خدمة الطالبين شرفًا عظيمًا لهم، وقال الأمير شاهجهان: إن مملكتي شيراز الهند.

إصلاح الباطن والعلاقة مع رجال القلب:

وكانت الميزة الخاصة التي تجدر بالذكر أن هذا النظام والقائمين به والمسؤولين عنه كانوا رغم انهماكهم بالعلم وبحرهم العلمي، وحذفهم في الفن وشعبيتهم والأعتراف بعظمتهم وكمالهم، لا يغفلون تركيبة نفوسهم وتوثيق علاقتهم مع الله، فكانوا في الوقت الذي يبذلون فيه جهدهم لتحصيل العلم والكمال في الفن، وخدمة رجال الفن، كانوا يبحثون عن أصحاب القلب السليم والشيوخ الذين يزكون نفوسهم، فكانوا يقومون بخدمتهم ويلزمون صحبتهم ويسعون رضاهم وحبهم مكملًا لسعويدهم وجهدهم، لا يعترض في هذا السبيل شرفهم العلمي، وتفوقهم الفني، وقبولهم الشعبي، فبينما كانوا يغيارى وكانوا يبدون كل أنفة وحشمة، فإن السلاطين كانوا أمام هؤلاء المشايخ الفقراء متواضعين، فاقيدي الإرادة والنفس، فكان
التواضع والغيره تميزت بها طبيعتهم، ويشكل العنصر الرئيسي لسيرتهم.

ولا يمكن التجاهل عن ناحية غريبة للتاريخ العلمي للهند، وهي أن الشخصيات التي خصها الله بالفضل والمجد العلمي، والخليد في التاريخ التي حكمت بعلماها العالم العلمي للهند عدة قرون، كانت مرتبطة بحال من الأحوال مع شيخ من شيوخ عهدها، ورجل صالح متق من أثنياء عصرها، وقد أثر على الأوساط العلمية في الهند أوليًا، ثم ثلاثة شخصيات، ورفع لواء العلم والثقافة تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم عدة قرون، وهذه الشخصيات والأستاذة الثلاثة هم العلامة عبد المقتدر الكندي (م 791هـ) وطلميده الشيخ خواججي الدهلوي (م 809هـ) والشيخ أحمد التهانيسري (م 801هـ) وكان هؤلاء الثلاثة كلهم من مسترشدي ومرتدي الشيخ نصير الدين جراح دهلي.

وكانت الشخصية الأخرى في السلسلة العلمية العلامة وجه الدين بن نصر الله الكجراسي (م 998هـ)، قضى من عمره ستين سنة في أحمد آباد في تدريس العلوم العقلية والنقلية، وانشر تلامذته من أحمد آباد إلى لاهور، وانهمكوا في التعليم والتدريس، ونالوا شرف أستاذ الأساتذة في حياته (1).

(1) تاريخ كجرات للعلامة عبد الحفي الحسني.
وكانت المدارس الشهيرة في كوره جهن آباد، وأميتهي وجنوب، وكهنؤ، تستنير بهذا النور، كان العلامي المذكور من خلفاء مسترشدي الشيخ محمد غوث الكواياري، وأدركه دعاوه وبركته. وكان أستاذه في هذه السلسلة الشيخ بير محمد اللکنھوی والشيخ غلام نقشبد من مسترشدي السلسلة الجشتية وجامعي المدرسة والزاوية.

وكان مسك الختام لهذه السلسلة العلمية الذي نال الخلود والصيت العالمي الفائق والذي قهر الهند وأفغانستان وإيران وغلب على جميع النظم، وسحر شبكات العلم، وهو نظام التعليم الذي أسسه الشيخ نظام الدين السهالوي (م 1161 هـ)، ولم يكن هذا العالم الجليل مجرد مسترشد لشيخ السلاسلة القادرة الشيخ عبد الرزاق البانسوري رحمه الله بل كان مسحوراً بحبه، مغلوباً بغرامه، وتعكس كل كلمة من كتاب «مناقب رزاقي» هذه الحب والوله العميق العامر، الذي كان يقوم بيته وبين شيخه.

واتصلت مدرسة ديوبند الشهيرة بحركة إصلاحية كبيرة في ذلك العصر، فكان مؤسسها الشيخ محمد قاسم الناثوني (م 1298 هـ) ومربيها الآخر الشيخ رشيد أحمد الكنوهي (م 1322 هـ)، من كبار مسترشدي الحاج إمام الله المهاجر إلى مكة المكرمة، وخليفته ومن نالوا الإجازة (في البيعة والإرشاد).
منه، وقد شملت هذه الحركة الممتزجة بالحركة الإصلاحية والترفيهية سائر أنحاء البلاد، وكان مؤسس ندوة العلماء محمد علي الموجيري التلميذ الروحي للشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي، فكانت السلسلة العلمية في الهند في سائر العصور وعلى سائر المراحل متصلة بالرقبانيين المربين المزكين للفنوس، وحظيت برعايتهم وحمايتهم، فأحدثت هذه الصلة الإخلاص والإنابة إلى الله، والقبول في الناس وشدة التأثير.

ومن الأمور التي تجذب الأنظار، وتحمل درساً لأولي الأبصر، وتتبعنا التاريخ العلمي، والذي لا يمكن حمله على ما يحدث بالصدف، أن معظم الأساتذة البارزة، والعلماء الكرام كانوا مرتبين في بعض الظروف في عصورهم بشخصيات روحية لم تكن باعتبار العرف، وبحكم النظام التعليمي، علماء معترف بهم علمياً أو حاملين شهادات، فلم يكن الناس في عصرهم يعتبرونهم من أهل العلم، وغير مثال لهذا الاتصال الغريب شخصية الشيخ محمد إسماعيل الشهيد، والشيخ عبد الحي البدهاني، من كبار علماء العصر، اللذين كانا قد أخصعا العالم العلمي بعلمهم واجتهادهما، كانت تقوم بينهما وبين السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله قائد حركة الإصلاح والجهاد في القرن الثالث عشر الهجري علاقة الاسترشاد والاستفادة القبلية، كما كانت هذه الصلة تقوم بين الشيخ نظام
الدين وهو القدر الفريد في العلم في عصره وبين السيد عبد الرزاق البانسوي، وبين الشيخ محمد قاسم النانوتوي العالم المجتهد، وبين الحاج إمام الله المهاجر المكى، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على صدق طلب هؤلاء العلماء الأفضل وهمهم العالية، وتواععهم وإخلاصهم، وكان هذا الإخلاص والربانية هي التي أسبحت على هذه السلسلة العلمية وهذه الأعمال الجليلة، التوسع، والاستحكار، الثبات، والقبول العام.

ومن أهم مزايا ذلك النظام التي تجدر بأن تعتبر شعاره الفريد، أنه كان يجمع بين الكمال العلمي والمطالعة الواسعة ونشوة التحقيق والبحث، وبين إرواء الغليل الباطني، والظما الروحي، وثب روح الصلة بالله، والإخلاص في العمل، والحرص على خدمة الخلق، فكانت النتيجة أن العلماء والأساتذة في هذا النظام كانوا على صلة وثيقة بعامة الناس وكانوا يتمتعون بالتفوذ على فكرهم وثقافتهم واجتماعهم، وكانت النتيجة الثانية أنهم كانوا على منأى من الحركات المادية والإغراءات، وأثر السلاطين والأمراء، وفرص الاختلاط بهم، وعلى ما يصنون عن الفساد الخلقية أو الضغط السياسي، الأمر الذي لا يمكن استبعاده على أساس مجرد العلم والذكاء، وأن الإخلاص العميق والتركيز القوي والإيثار الذي واصف به علماء ذلك العصر حركتهم العلمية ونشاطهم التعليمي، وتملكوا ناصية.
المعلم، وقاموا بدورهم الإصلاحي والتربيوي، ونوروا الأصقاع بمصابيح علومهم، وفكرهم مدين إلى أكبر حد لهذا الفيض الروحاني، والتربية الخلقية وتركيزة النفس التي كانوا يستخلصونها من هذه المراكز الروحية والشخصيات النيرة.

وأستمرت هذه الميزة إلى آخر العهود، فكلما كان طالب يستكمل دراسته كان يبدأ في البحث عن شخص نير القلب والروح لإذكاء فؤاده، وتهذيبه وتربيته، فيتوجه إلى مركز روحي حسب ذوقه أو ذوق أستاذه، ويقضي فترة من حياته في هذا المركز، ليستكمل فيها التربية القلبية التي ليست ميسرة في معهد علمي خالص، فكان متخرجو مدرسة الشيخ لطف الله (وهي مدرسة عالمية للعهد الأخير) يتوجهون إلى مركز الرشد والهداية للشيخ فضل الرحمن الكنيج مراد آبادي في البلاد الشرقية للهند، وكان متخرجو المدارس الواقعة في شمال غربي الهند كديوبند وسهارنبر، يتوجهون إلى تهانه بهون وكنكوه وراية بور، حيث كان خلفاء الحاج إعداد الله المهاجر المكي، والشيخ رشيد أحمد الكنكوي وخلفاؤه يقومون بالإرشاد والنصحة والتربية.

* * *
دار العلوم بديونبد

إن أكبر معهد ديني في الهند يستحق أن يسمى أزهر الهند، هو معهد ديويند الكبير، بدأ هذا المعهد كمدرسة صغيرة للاستعراض الاهتمام، ثم لم تزال تتوسع وتتضخم بفضل جهود أساتذتها والقائمين عليها، وإخلاصهم وزهدهم في حطام الدنيا، حتى أصبحت جامعة دينية كبيرة بل كبرى المدارس الدينية في قارة آسيا.

وكان افتتاحها في قرية ديويند من القرى التابعة لمدينة سهارنبوور في مسجد صغير سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجري 1283 هـ، أسسها العالم الجليل المخلص الشيخ محمد قاسم النانوتوي المتوفي سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجري 1298 هـ. وكان الاعتماد فيها على الله ثم على تبرعات عامة المسلمين، ورزقت من أول يومها رجالاً عاملين مخلصين وأساتذة خاشعين متقين، فسرت فيها روح التقوى والاحتساب.
والتواضع والخدمة، ولم يزل نطاق المدرسة يتسع، وصيتها يذيع، وشهرة أساتذتها في الصلاح والتقوى والبحر في علم الحديث والفقه تطير في العالم، حتى أتمها الطلبة من أنحاء الهند، ومن الأقطار الإسلامية الأخرى، حتى بلغ عددهم في الزمن الأخير حوالي أربعة وألف (١٤٠٠هـ).

ويقدر عدد الذين اشغروا في هذه المدرسة بالعلم بأكثر من عشرة آلاف، والذين تألوا الشهادة منها بنحو خمسة آلاف، والذين ارتووا بمناهلها من أهل خارج الهند كباكستان، وأفغانستان، وصقور، وبخارى، وقازان، وروسيا، وأذربيجان، والمغرب الأقصى، وآسيا الصغرى، وتبت، والصين، وجزائر بحر الهند، والحجاز، والأقطار العربية نحو خمسمائة.

وكان للمتخرجين في دار العلوم تأثير كبير في حياة المسلمين الدينية في الهند، وفضل كبير في محو البدع وإزالة المحدثات، وإصلاح العقيدة والدعوة إلى الدين، ومناظرة أهل الضلال والرد عليهم، وكانت لبعضهم موقف محمود في السياسة والدفاع عن الوطن، وكلمة حق عند سلطان جائر.

وشعار دار العلوم ديواند التمسك بالدين، والتصلب في

(١) وقد ازداد هذا العدد وتضخم في السنين الأخيرة.
المذهب الحنفي، والمحافظة على القديم، والدفاع عن السنة.
وتلقي دار العلوم الديوبندية في كثرة الطلبة والاعتناء بالعلوم الدينية، مدرسة «مظاهر العلوم» في مدينة سهارنبور التي تأسست في سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف أيضاً، وهي تشارك دار العلوم في العقيدة والمبدأ والشعار.
وقد خرجت عدداً كبيراً من العلماء الصالحين والرجال العاملين في ميادين العلم والدين. ولعلماًها ومترجهاً آثار جليلة في شرح كتب الحديث وخدمة هذا الفن الشريف، وتمتاز هذه المدرسة وأساتذتها وطلبيها ببساطة في المعيشة، والقناعة بالكوفاء، والقوة في الديانة.

مدارس أخرى تابعة للمنهج النظامي:

يوجد في الهند عدد كبير من المدارس والمعاهد التعليمية على غرار مدرسة ديويند ومظاهر العلوم، يتع فيها المنهج النظامي للتعليم، وتقوم علاقة علمية بين هذه المدارس ودار العلوم الديوبند، وقد مثلت هذه المدارس دوراً هاماً في إنعاش المسلمين الديني والدروبي، ويجد بالذكر من هذه المدارس في شمال الهند «مدرسة شاهي» بمراد آباد، ومدرسة إمادية» في دربنكا، ولجماعة أهل الحديث (السلفيين) أيضاً مدارس خاصة، منها الجامعة السلفية في بنارس، ومدرسة أحمدية في
لهرية سرائي، والمدرسة الرحمانية في دهلي، وهي جديرة بالذكر بصفة خاصة، وقد أقفلت المدرسة الرحمانية في دهلي بعد التقييم أما مدرسة لهرية سرائي ومدرسة بنارس فهما مستمرتان.

ومن المدارس العربية الرسمية المدرسة العالية في رامبور، والمدرسة العالية بكلكتا، وشمس الهدى في بنتها، وهي مدرسة رئيسية شهيرة، وكانت المدرسة العالية في رامبور وكلكتا تعتبران في الزمن الماضي في كبريات المدارس، وقد سجلتا آثاراً خالدة بتفوق أساتذتها، ومميزات طلبتهما.

وللشياعة الإمامية أيضاً مدارس خاصة، وتوجد معظم هذه المدارس في مركز هذه الطائفة العلمي والديني بلكهنؤ، ومن أهمها مدرسة سلطان المدارس، والمدرسة الناظمية، ومدرسة الوعاظين.

وبجنب الهند (حيث يلاحظ في المسلمين شغف عظيم وولوع بالتعليم الديني)، توجد مدارس عربية عديدة، منها المدرسة النظامية بحيدر آباد، وجامعة دار الهدى بكريم نكر، وجامعة دار السلام بعمر آباد، والباطيات الصالحات في ويلور، وكانت في مدراس المدرسة الجمالية التي ذاع صيتها في أرجاء الهند، وكانت تعتبر مدرسة جامعة راقية دينية، وقد بدأ النشاط فيها من جديد.
المدرسة السلفية بنارس:
وفي عام 1383 هـ أنشئت جمعية أهل الحديث في الهند
مدرسة باسم "الجامعة السلفية" في بنارس، مدينة الهند القديمة
التي تعتبر مركزاً كبيراً للمعابد الوثنية وهي عند الهندوس أقدس
مكان يتبركون به، فكانت الحاجة ماسة إلى تأسيس مركز ديني
وعلمي كبير في مثل هذه المدينة، وقد تحققت هذه الحاجة يوم
افتتحت الجامعة السلفية وبدأت نشاطاتها ودخلت في مرحلة
العمل والتطبيق، وذلك في شهر ذي القعدة عام 1385 هـ.
وقد نالت الجامعة السلفية ترحيباً من جميع الأوساط العلمية
والدينية في الهند وخارجها، وقد ركزت عنايتها بصفة خاصة
على الأهداف التالية:
1 - تدريس القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين
للشريعة الإسلامية.
2 - دراسة اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية الاجتماعية
القديمة منها والحديثة.
3 - نشر العلوم الإسلامية والأدبية، والاحتفاظ بالتراث
الإسلامي، والاهتمام بتعميم اللغة العربية في الهند.
4 - إعداد الدعاة الصالحين.
5 - الاعتناء بناحية التأليف والطبع في مختلف اللغات العالمية
المهمة، وإعداد الكتاب الإسلاميين الجامعين بين الاعتزاز
مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

بالتراث الإسلامي والرد على أعداء الإسلام والدفاع عن الدين.

6 - محاربة البدع والخرافات والعادات الجاهلية الفاشية في المجتمعات الإسلامية.

وقد نجحت الجامعة السلفية - رغم قصر عمرها - في أهدافها التي تبنتها إلى حد كبير.

وفي مديريات أعظم كره مدارس إسلامية كثيرة تمتاز بعضها بخدماتها العلمية والدينية، كمدرسة "مفتاح العلوم" في بلدة متو، التي كان يشرف على شؤونها التعليمية والإدارية في الماضي المحدث الكبير الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ضاحب مؤلفات مهمة في علم الحديث وفن الرجال، وتمتاز هذه المدرسة بعنايتها الفائقة بتدريس العلوم الإسلامية والحديث الشريف، ويشتغل عدد وجيء من متدخينها بخدمة العلوم الدينية واللغة العربية في كبرى المراكز العلمية في الهند أيضاً.

كذلك مدرسة "دار العلوم" ومدرسة "فيض عام" في متو، ومدرسة "جامعة الفلاح" في بلريا كنج، ومدرسة "جامعة الرشاد" في مدينة أعظم كره، ومدرسة "بنت العلوم" في سراي مير، ومدرسة "مظهر العلوم" في بنارس، ومدارس إسلامية عديدة في مديرية جونبور وأعظم كره، كلها تهتم بتدريس العلوم الدينية واللغة العربية وبعض اللغات والعلوم العصرية مع
المحافظة التامة على الصبغة الإسلامية والطابع الديني.
وفي مونجير في مقاطعة بهار مدرسة كبيرة تسمى "الجامعة الرحمانية" يشرف عليها ويعني بها العالم الكبير السيد من الله الرحماني أمير الشريعة في ولايتي بهار وأربية.
المدارس والجامعات المدنية:
وقابل مدرسة ديوند وشقيقاتها وما كان على شاكلتها من المدارس الدينية القديمة، الجامعات المدنية العصرية التي أسسها المسلمون في عليكره ودهلي وحيدر آباد، لتعليم أبناء المسلمين وشباثهم العلوم العصرية واللغات الأجنبية، وإعدادهم للوظائف الرسمية والمراكز الحكومية، وللمساهمة في حياة البلاد وخبراتها وإدارتها.
جامعة عليكره
وأشهر هذه الجامعات وأقدمها وأعظمها تأثيراً في عقلية المسلمين وسياستهم "جامعة علي كره الإسلامية" التي تعد من أرقى الجامعات في الهند وأوسعها، أسسها الزعيم المسلم الشهير سر سيد أحمد خان باسم "مدرسة العلوم" وقد أصيب المسلمون في إثر إخفاق الثورة العظمية التي قاموا بها سنة سبع وخمسين وثمانمائة وألف بجمود تعليمي واجتماعي، وتسرب اليأس إلى نفوسهم وفقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم، وأصابتهم دهشة الفتح، وأساءت الحكومة الإنجليزية الظن بهم واستغنت
مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

136

عندهم في وظائفها وإدارتها، فاصبح المسلمون - الذين كانوا يملكون زمام البلاد في العهد الماضي القريب - لا نصيب لهم في سياسة البلاد وإدارتها ولا نشاط لهم، ورأى السيد أحمد خان - وكان رجلاً شديداً التأثير مرهف الحس - أن علاج ذلك هو تعلم الإنجليزية وآدابها وعلومها التي قاطعها المسلمون، والظهور في مظهر سيد البلد في الزي واللباس والحضارة والاجتماع، حتى يزول "مركب النقص" وتولي الوظائف الحكومية.

وقد نجحت جامعة عليكره في رسالتها نجاحاً كبيراً، وأقبل عليها أبناء الأسر الشريفة "الأرستقراطية" في عدد كبير، وخرج فيها رجال كثير شغلوا وظائف كبيرة في الحكومة وتمتعوا بثقة، وقد لعبت الجامعة وأبناؤها دوراً مؤثراً في حياة المسلمين وسياسة البلاد، ومنها نبعت حركة القومية الإسلامية تقابل حركة القومية الهندية والوطنية، يتزعمها رجال من الطبقة الأرستقراطية في المسلمين، وميزانيتها السنوية نحو (أربعين مليون روبيه) وفيها نحو عشرة آلاف طالب.

الجامعة الملكية الإسلامية:

وقد انفصل عن جامعة عليكره بعض أبنائها وخريجاتها

(1) وقد كان في كل ذلك تقدم وزيادة على مر الأيام، وهو أكثر مما ذكر في هذه الأيام.
مرکز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

أيام حركة الخلافة الوطنية، وأسسوا جامعة شعبية مستقلة في السياسة وتعليمها سنة 1920 م، ينتمون لها الزعيم الإسلامي الكبير مولانا محمد علي، وقد انتقلت من عليكره إلى دلهي واشتهرت باسم "الجامعة العالمية الإسلامية"، يمتاز أساتذتها وإدارتها - وكان على رأسها الرجل التعليمي العالمي الدكتور ذاكر حسين رئيس الجمهورية الهندية سابقاً (1) - ب يعتبرهم الوطنية وروح التضحية والإيثار، ظلوا مدة طويلة يكافحون التيار، ويعيشون في ظل فو واستمر، وكان لهم نشاط ظاهر في ميدان الثقافة والتعليم، ومحصول ذو قيمة في الأدب والعلوم، وهي الآن من الجامعات التي تتفق عليها حكومة الهند.

الجامعة العثمانية:

وتمتاز "الجامعة العثمانية" في حيدر آباد بأنها جامعة درست العلوم العصرية في "أردو" لغة الهند العلمية، وعنبت بنقل العلوم الحديثة وترجمة الكتب المهمة في الفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والسياسة والاقتصاد والتاريخ إلى أردو، وضع المصطلحات العلمية فيها، وبذلك أدت خدمة عظيمة للمسلمين وثقافة الهند.

(1) توفي في 3 مايو سنة 1969 م.
ندوة العلماء:

وتدوّن بين المدارس القديمة التي تتمسك بالقديم وترى العدول عنه ضربًا من التحريف ونوعًا من البدع، وبين الجامعات المدنية التي تقدس الجديد وتسهين بكل قديم، تتوسط بين تلك.

وهذه دار العلوم التابعة لندوة العلماء التي تأسست في لكونس سنة إثنتي عشرة وتلائمة وألف هجرية 1312 هـ بيد العالم الرباني، الشيخ محمد علي المونكري وزملائه المخلصين، الذين خافوا على المسلمين من المحافظين ومن المتطفرين، ومن اعتزال العلماء عن الحياة وتخليفهم عن ركب الثقافة والعلم، ومن العصيبيات المذهبية والمساحرات الفقهية التي قويت ونشبت في العهد الأخير.

تأسست ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والأعمال الذي يتغير ويتطور ويتقدم، وبين طواقف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية، وأن منهج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجديد، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزداد فيه ويحذف منه بحسب تطورات العصر وحاجات المسلمين وأحوالهم.
مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

عنيت دار العلوم بصفة خاصة بالقرآن الكريم - الرسالة الخالدة - وتدريسه ككتاب كل عصر وجيل، وعنيت باللغة العربية التي هي مفتاح فهمه وأمنية خزائنه، وجهت عنايتها إلى تعليم هذه اللغة الكريماً كلغة حية من لغات البشر يكتب بها ويخطب، не كلغة أثرية دارسة لا تتجاوز الأحجار أو الأسفار كما كان الشأن في الهند، وقللت قسط بعض العلوم القديمة التي لا تنفذ كثيراً وأبدلتها ببعض العلوم العصرية التي لا غنى عنها للعالم العصري الذي يريد أن يخدم دينه وأمته، واجتهدت أن تخرج رجالاً مبشرين بالدين الإسلامي الخالد لأهل العصر الجديد شارعين للشريعة الإسلامية بلغة يفهمها أهل العصر وبأسلوب يستهوي القلوب، أمة وسطاً بين طرفين الجمود والجود، وقد نجحت في مهمتها نجاحاً لا يستهان بقيمتها، فأنتجت رجالاً هم خير مثل للعالم المسلم العصري، لهم آثار جميلة خالدة في الأدب الإسلامي وعلم التوحيد لأهل العصر الجديد، والسيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام - والتاريخ.

مدرسة الإصلاح

وعلى طرازها مدرسة كبيرة تسمى «مدرسة الإصلاح» في سراي مير، أسسها العالم الكبير الشيخ حميد الدين الفراهي عام 1326 هـ (1909 م) ولها عناية خاصة بالتفسير وفهم القرآن على طريقة مؤسسها الشيخ الفراهي.
دار المصنفين

وقد أسس المتخرجون في الندوة «دار المصنفين» في أعظم كره عام 1914م وهي من المؤسسات العلمية الكبيرة في الهند، وكان العالم السيد سليمان الندوي رئيسها مدة وجوده في الهند، نشرت كتبًا كثيرة متنوعة في الدين والأدب والتاريخ، بلغ عددها إلى عام 1292هـ إلى 112 كتابًا (1) لا تستغني عنها مكتبة في الهند، وهي تصدر مجلة علمية راقية شهرية باسم «معارف».

ندوة المصنفين

وفي دهلي مؤسسة علمية تصدر كتبًا في الثقافة والتاريخ، وهي «ندوة المصنفين» نشأت عام 1938م وتصدر مجلة علمية شهرية وهي مجلة «برهان» يحررها الأستاذ سعيد أحمد أبادي رئيس القسم الديني سابقاً في جامعة عليكره (2) ولها مطبوعات قيمة حازت القبول والتقدير في الأوساط الإسلامية العلمية.

ومن أقدم الجمعيات التعليمية التي كان لها فضل في نشر الوعي السياسي والثقافي «مؤتمر التعليم الإسلامي العام» الذي أسسه سيد أحمد خان عام 1886م في عليكره بعجال قضية تعليم الشباب المسلم في مدارس الحكومة، ومنه نُبعت «العصبة

(1) وقد بلغ عددها في عام 1986م إلى 182.
(2) مات رحمه الله في 24 مايو سنة 1985م.
الإسلامية) ، وقد ضعف نشاط هذا المؤتمر بعد التقسيم لتغير الوضع السياسي والثقافي في الهند.

مجلس التعليم الديني:

نالت الهند الاستقلال في 1947م ، واخترعت لنفسها نظام حكم علماني ، وأعدت الدستور بموجبه ، ونص الدستور على تأمين حقوق مساوية ، ولكن رغم ذلك أعدت بعض الولايات الهندية مناهج تعليمية كانت مقدمة للردة الدينية والثقافية للمسلمين ، وكانت لا تتلاقى مع عقائد المسلمين ومبادئهم الأساسية فحسب ، بل كانت تهدد أساسها.

وفكر صفواء من رجال الفكر والوعي الإسلامي في هذه المشكلة التي كانت تهدد الأجيال القادمة للمسلمين والناشئة منهم ، فأنشؤوا مجلس التعليم الديني العام في ولاية أترابرديش تحت إشراف الهئات الإسلامية المختلفة المتحدة ، وقد أقامت الهيئة شبكة للمدارس في مختلف أنحاء البلاد وبلغ عددها إلى 10,000 وهي تشرف على نهضة التعليم الإسلامي للمسلمين حيث يتلقى الأطفال المسلمون التعليم الديني بلغتهم.

دائرة المعارف بحيدر آباد:

ومن المؤسسات العلمية الكبيرة التي كان لها فضل كبير في...
 saygı إنهاء الكتب الدينية والعلمية وبعثتها في المكتبات العتيقة ونشرها في العالم الإسلامي «دائرة المعارف» في حيدر آباد التي تأسست عام 1306 هـ - 1888 م بتوجيه العلامة السيد حسين البلكري، وموالنا عبد القيوم، وموالنا أنوار الله خان أستاذ سمو النظام وقد نشرت أكثر من مئة وخمسين كتاباً قيماً من كتب الحديث وأسماء الرجال والتاريخ والعلوم الرياضية والحكمة، حرمها العالم الإسلامي والأوساط العلمية من عهد بعيد وتسامع بها العلماء والمدرسين، فكانت خدمة جليلة للعلم والدين، وبرهاناً على ما كان - ولا يزال - للمسلمين من اتصال روحي وفكري بالثقافة الإسلامية وحص عميق لها، وقد اعترف بجهود هذه المؤسسة العظيمة وجلالة عملها وقيمتها ما تنشره من التراث العلمي كبار العلماء ورجال الثقافة في الشرق وأوروبا، وقد قال العلامة الشيخ إبراهيم الجبالي رئيس بعثة الأزهر التي زارت الهند عام 1937 م:

«إذا نعترف لرجال دائركة المعارف» بحيدر آباد بتلك الجهود الموفقة التي بذلها في خدمة العلم ونشر الثقافة العربية، فقد وجهوا همهم العالية إلى إحياء الكتب القيمة التي جادة بها قرائن الأئمة المتقدمين، وأتى عليها حسن من الدهر وهي مختفية عن الأعين حتى عفا رسمها، وإن كان لا يزال يملأ الأسماع اسمها، وطالما تشكلت الأذان إلى الاكتشاف من بحارها كما
مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند

استلقت الآداب بشهرتها واسمها، فعمدوا - حفظهم الله - إلى التنقيب عنها والسعي وراء العثور عليها، ثم مقابلة نسخها لإزالة ما علقت بها من التشويه حين نسخها، ثم تكميل ما نقص منها وتصحيح الغلطات التي أدخلت عليها، لا يبالون في سبيل ذلك بما يتكدب من مشاق السفر ومتاعب النقل والتصحيح والمقابلة، وما يتحملون في سبيل ذلك من عظيم النفقات المالية(1).

ولما قررت «الجامعة العثمانية» في حيدر آباد تدريس العلوم والفنون في «أردو» أنشأت «دار الترجمة» في سنة 1335 هـ وقد نشرت 358 كتابًا في التاريخ والجغرافيا والسياسة وعلم الاقتصاد والدستور، وعلوم العمار والفلسفة والمنطق وما بعد الطبعة، وعلم النفس والأخلاق وعلوم الرياضة والطبيعة، وعلم الحياة والكيمياء والطب الهندسة وغيرها، وكان من أعمالها الجليلة وضع المصطلحات العلمية وترجمة المصطلحات من اللغات الأوربية إلى أردو.

وكان من الشخصيات العلمية والأدبية الشهيرة التي ساهمت في مواصلة هذا المجهود العلمي وتنميته، وكان لها اتصال عميق بشؤونه، الدكتور عبد الحق، والشيخ عبد الماجد الدربابادي، رسالة علمية تاريخية طبع دائرة المعارف - ح، ط. (1)
والشيخ عبد الله العمادي، والأستاذ وحيد الدين سليم باني بتي، والشيخ عناية الله الدهلوسي، والشيخ مسعود علي المحوري، والقاضي تلمذ حسن الجوهر كهوري.

و كانت ميزانيتها السنوية ٢٦١٤١٥ جنيهًا، وقد وقفت وعطلت بعد التقسيم سنة ١٩٤٨م، ووقع في مكتبتها حريق أتلفها(١) وضيع هذا التراث الثمين.

وللجماعة الإسلامية التي مركزها الهند نشاط طيب وإنتاج ذو قيمة في نشر الأدب الإسلامي، وتأليف الكتب الدراسية للنشر الإسلامي في "أردو" وفي "الهندية" ولها مدرسة نموذجية في "رامبور".

وللمسلمين في جنوب الهند (مدراس وكيرالا وبلاد مالابار) نشاط كبير في نشر التعليم الديني والدولي وتأسيس المدارس الدينية العربية والكليات الإسلامية، ويمتاز أهل مالابار في ولاية كيرالا بشغفهم باللغة العربية وتمسكهم بها، ولهم مدارس منشورة في المديريات والمدن الكبيرة وما يتبناها من القرى، تعلم فيها اللغة العربية، كروضة العلوم وسبل السلام ومدينة العلوم والجامعة الندوة التابعة لندوة المجاهدين وغيرها، وعلماء هذه

(1) كثير من الناس يعتقدون أن هذا الحريق كان عن مؤامرة لإتلاف هذا الكنز الثمين.
المنطقة أقدر على اللغة العربية منهم على لغة أردو التي هي لغة الشعب الإسلامي في الهند، حتى يحتاج زائر من الشمال إلى التفاهم معهم عن طريق اللغة العربية.

وللمسلمين في الجنوب كليات إسلامية كبيرة، من أشهرها الكليّة الجديدة (New College)، والكلية الإسلامية في واين بادي (Vaniyam Badi) وكلية جمال محمد في ترشانابي (Tiruchina Palli) والكلية العثمانية في كرنول (Kurnool) وكلية فاروق في ملابار تنفق على أكثرها رابطة التعليم الإسلامي بجنوب الهند.

وقد عني الأمراء والأقيال وكبار العلماء باقتناء مكتبات عظيمة وشغفوا بها شغفاً عظيماً، ومن أغنى مكتبات الهند ودور الكتب وأجمعها للكتاب النادرة والأثر الثمينة ومخطوطات المؤلفين ونوادر الكتاب "مكتبة بانكي بور" في بنه، وهي مكتبة المرحوم الفاضي خدا بخان، ومكتبة إمارة رامبور، ومكتبة الأصفية في حيدر أباد، ومكتبة السري الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشرواني العلي كري رئيس الأمور الدينية في حيدر أباد سابقاً، وقد ضمت إلى "مكتبة آزاد" التابعة لجامعة علي كره الإسلامية، ومكتبة دار العلوم ديويند، ومكتبة جامعة عليكره، ومكتبة الشيخ ناصر حسين ابن الشيخ حامد حسين الكنتوري في لاهور، ومكتبة العلامة شهيل النعماني التابعة لندوة العلماء
وتضم 1000 من المطبوعات و1000 من المخطوطات.
وقد زارت الهند بعثة أوفدتها الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة 1951م لتصوير الكتب النادرة الخطية الموجودة في مكتبات الهند، فزارت عواصم الهند ومكتباتها الكبيرة وأخذت صور مئات من الكتب النادرة.

* * *

146

مراكز العلم والثقافة الإسلامية في الهند
الصوفية في الهند وتآثرهم في المجتمع

tًريب: الأستاذ محمد الحسن (رحمة الله)

[مقال تاريخي يبحث عن تأثير الدعاء إلى الله، والمربيين الروحيين، الذين يسمون غالباً بالصوفية، في الأخلاق والسلوك، وفضلهم في محاربة الفساد في البلاد، وتكوين المجتمع الإسلامي الهندي الصالح، الذي استطاع أن يعيش سبعة قرون في وسط الوثنية البرهمية والملوكية المستبدة، بصرف النظر عن أساليبهم وتقليدهم ومن غير موافقة عليها، والشيوخ الذين جاءت أسماؤهم في هذا المقال، تحقق في التاريخ الزمّهم للعقيدة الإسلامية الصحيحة، وحرصهم على اتباع السنة وغيرها على الدين.]

إن طريق التصوف الأساسية المشهورة ظهرت خارج الهند، ولكنها نالت أكبر قسط من القبول والانتشار والازدهار في هذه البلاد بسبب أوضاعها الخاصة وطبيعتها، ثم نبعت من هذه
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

الطرق والسلاسل فروع هندية الأصل، واتخذت شكل طرق مستقلة بذاتها، وبرز فيها أئمة مجتهدون أنشؤوا طرقاً مختلفة وأسسواها.

وبجانب تلك الطرق الصوفية المشهورة (مثل الطريقة القادرية والجشتية والنقشبندية والسهيرودية، التي ترعرعت في الهند وازدهرت ونفقت سوقها) طرق وسلاسل أخرى وليدة هذه البلاد فحسب، وهي تنتمي إلى شخصيات نبغت في الهند ودفنت في أرضها، مثل الطريقة الفردوسية، والمدارية، والقلندرية، والشطارية، والمجددية، وهي سلاسل نشأت في الهند، و"صدرت" بعد ذلك إلى بلاد أخرى، وقد استفاد عدد كبير من أهل الحجاز ورجال العالم الإسلامي والعبري من الشيخ علي المتقى صاحب كنز العمال في القرن العاشر، ومن الشيخ تاج الدين السبهلي، والشيخ آدم البنوري في القرن الحادي عشر بعد ما هاجروا إلى الحجاز واستوطنوه، وقد أصبحت هذه البلاد الهند) حاملة لواء التصوف وإصلاح الباطن منذ بداية القرن الحادي عشر، وزعمها إذ ذاك، الشيخ أحمد السرениدي ونجله وخليفته العظيم محمد معصوم اللذان أفادا منهما العالم مدة طويلة من الزمن، وكان خلفاء الشيخ محمد معصوم منتشرين في أفطار أخري: كأفغانستان، وإيران، وتركستان، وكان الناس يشدون الرحال إلى زاوية الشيخ غلام علي الدهلوي (وهو من شيوخ
الطريقة المجدية في القرن الثالث عشر من بلاد بعيدة مثل العراق والشام ومصر والصين والحبشة وخارى وسرقند، وانتشار هذه الطريقة بواسطة خليفته الشيخ خالد الشهرزوري في العراق وتركستان والشام وتركيا، ولا تزال باقية فيها.

وفي أوائل القرن الرابع عشر اشتهر الحاج إمداد الله المهاجر المكي بلقب «شيخ العرب والعجم» وأفاد منه كثير من أهل الحجاز والحجاج الواصلين إليه.

وما زال هذا النبراس – نبراس الإصلاح الباطني – مضيئاً في العالم الإسلامي بفضل الهند، ولا تزال طريقة «الحب الإلهي» مستمرة باقية فيها، وهي المرجع العالمي لهذا الفن من أجل بعض رجالاته وأعلامه.

صلاة الجمهور بالصوفية والتصوف وإقبالهم عليه:

إن العهد الإسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية، وخاصة الشيخ معين الدين الأجميري، الذي أسس الطريقة الجشتية في هذه البلاد على دعائم قوية بجهاده وإخلاصه، وأقبل عليه الناس من جميع الطبقات والفئات، يتنافسون في حبه، وصلتهم بهؤلاء المرشدين رجال الله والدعوة إليه بإخلاص وصدق وأمانة ونزاها، وامتدت في طول البلاد وعرضها شبكة
من المراكز الروحية حتى لم يبق بلد أو قرية ذات شأن إلا وفيها مركز روحي أو عدة مراكز.

إن الصلة القلبية والروحية وموجة الحب والإجلال التي كانت تغمر الناس نحو هؤلاء الشيوخ والصوفية تنجل في الأحداث التالية التي نسردها في هذا المكان من غير أن نراعي فيها الترتيب التاريخي.

كان السيد آدم البنوري - دفين البلق (م 101 ه) يأكل على مائدة كل يوم ألف رجل، ويمشي في ركاب ألف من الرجال ومئات من العلماء، ولما دخل السيد في لاور عام (53 ه)، كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم، حتى توجس شاهجها ملك الهند منه خيفة فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له: «قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز» فعرف إيعاز الملك وسافر إلى الحرمين حيث مات.

وهو الشيخ محمد مصوص (م 1079 ه) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي قد بيعه وتابع على يده تسعة آلاف من الرجال، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال.

وكتب سيد أحمد خان مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكره

(1) نزهة الخواطر، ج 5 للعلامة عبد الحي الحسني.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

في كتابه "آثار الصناديد" يذكر الشيخ عبد الله المعروف بغلام علي الدهلوي فقال:

"لا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم" وهكذا كان الإقبال على المصلح الكبير السيد أحمد الشهيد إقبالاً منقطع النظير، إنه لم يمر ببلدة إلا وتاب عليه وبايعه عدد كبير من الناس، حتى إن المرضى في مستشفى بنارس أرسلوا إليه يقولون: "إنا رهائن الفراش وأحلام الدار فلا تستطيع أن تحضر، فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل" وذهب السيد وبايعهم.

وأقام في كل كله شهرين، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوتون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثمانية عشرة مرة.

إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي، وطاعة الله ورسوله، ويجذرون من الفحساء والمنكر، والأخلاق السيئة والظلم والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتحلي عن الرذائل (مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحـ
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

الجاه) وتركية النفس وإصلاحها، وتعليمهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقه الخاصة بين الشيخ ومرده أنهم كانوا يعظون الناس دائما ويلمرون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب الله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبته شديدة لإصلاح النفس، وتغيير الحال، فإن أي مدى كان تأثير أخلاقهم وإخلاصهم، وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة، ونقدم هنا بعض الأمثلة التي تلقى الضوء على هذا الواقع التاريخي.

يقول مؤرخ الهند الشهر القاضي ضياء الدين البرني يذكر عهد السلطان علاء الدين الخليجي يقول: "كان شيخ الإسلام نظام الدين وشيخ الإسلام علاء الدين وشيخ الإسلام ركن الدين من أعلام التربية الروحية والإصلاح في عهد السلطان علاء الدين تنور بهم العالم، وابتعهم خلق كثير لا يحصون، وتاب على أيديهم الفسقة والفجوة، وواضروا على الصلاة، وعضاوا عليها بالنواذج طول حياتهم، ونشأ فيهم حب الدين وإجلاله، وصحبت توبيتهم، والتزموا العبادات كلها، وضاءاع حب الدنيا في قلوبهم، وذلك بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة، وعروفهم عن الشهوات وترك الملوثات، وانتشار الصدق في الناس بركة عبادتهم وسلوكهم في الحياة ونشأ فيهم - بتأثير مكارم أخلاقهم ومجاهداتهم - رغبة في إصلاح أخلاقهم وتغييرها"
ويقول:

«إن السنوات الأخيرة من عهد علاء الدين تمتاز بأن كسدة فيها سوق المنكرات من الخمر والغرام والفسق والفجور والمسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظل الناس يستثرون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندر في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش»(1).

وكان لهؤلاء المشايخ عناية كبيرة بالأخلاق والسلوك والمعاملات، وتأدية الحقوق وقضاء الديون، وكانوا يوصون من يدخل في بيعتهم بالعناية البالغة بهذه الأمور، وقد أوصى الشيخ نظام الدين شيخه فريد الدين كنجه شكر بأن لا يدخر وسعًا في إرضاء الخصوم وأصحاب الحقوق، وكان عليه 20 جيثل (فلس) لشخص، كما استعار كتاباً من شخص آخر فضاع ذلك الكتاب، فلم زار دهلي وذهب إلى الشخص الأول قال: «يبدو أنك قادم من عند المسلمين» ولم زار الشخص الثاني قال: «إن هذه الأخلاق ليست إلا نتيجة ذلك المكان الذي كنت فيه».

إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشيء

(1) فوائد الفؤاد ص 14.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم.

كان السيد أحمد الشهيد أثناء سفره للحج مع ركب كبير، ولا يضيع فرصة لخدمة الناس في هذه الرحلة الطويلة الشاقة، إن هذه الرحلة كانت عن طريق نهر كنجز بالسفن، وحدث أن وجدوا على ضفة مرزابور سفينة مشحونة بالقطن، وكان صاحب القطن ينتظر الحمالين ليحملوا ذلك القطن إلى مخازنه، فأمر السيد أصحابه بنقل تلك الحزمات، فهجم على السفينة مئات من الناس، وفي دقائق وثوان أفرغوا السفينة وحملوا القطن إلى مكانه، فأعجب الناس بذلك وتهامسوا فيما بينهم قائلين: "لم نر كاليوم، إن هؤلاء ليست لهم معرفة ولا صلة بصاحب القطن، ولم يطلبوا الأجر، وقاموا بهذا العمل لوجه الله، إنهم من أولياء الله من غير شك".

إن الحديث عن هؤلاء الصوفية والمشائخ بأدوارهم التاريخية والترتيب التاريخي لا محل لها هننا، وهو يحتاج إلى مجلد ضخم، فإن سهم هؤلاء المصلحين وعلمي الآخلاق في تكوين مجتمع صالح واع في الهند (التي قوة هذه البلاد المعنى الكبرى)، ومصدر الولاة الصالحين والحكام العادلين في كل

(1) سيرة السيد أحمد الشهيد ص ٢٩٩.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

عهد، وهو الذي منح الهند أفراً أذكاء أكفاء في ظروف دقيقة حكمة جداً) سهم أساسي أكثر من سهم أي واحد من أبناء هذه البلاد وبناتها.

وبصرف النظر عن القرون الوسطى التي تبعرت مادتها الواسعة في تراجم المشاهير نكتفي هنا بذكر مصلح كبير في القرن الثالث عشر وهو السيد أحمد الشهيد وتأثيره الديني والاجتماعي كمثال لهذا التأثير والندافع في المجتمع والحياة، فقد ذكر المؤرخون أنه لما أقام مع أصحابه في كلكته في طريقه إلى مكة المعظمة - واشتهل هو وبعض أصحابه من العلماء كالمصلح الكبير الشيخ إسماعيل الشهيد بالوعظ والتذكير، وتقاطر الناس على السيد للبيع واللبيعة عن المعاصي (كان تأثير هذه المواعظ ودخول الناس في الذين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكته - وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنكليز - كسدت سوقها وأقفرت الحانات ، واعتذر الحمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعلمين بكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر)

إنها كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاء والصوفية والمشاهير وروحانيتهم، أن اهتدي بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس ، وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع

(1) لماذا خسر العالم بالخطاطر المسلمين؟ ص 240 الطبعة الرابعة.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

الهوى، لم يكن بوسع حكومة أو مؤسسة أو قانون أن يؤثر في هذه المجموعة البشرية الضخمة وحيطها بسياج من الأخلاقيات والمبادئ الشرفية لزمن طويل.

كلمة حق عند سلطان جائر:

وكان من مآثر هؤلاء المصلحين الروحيين الكبرى أنهم قاوموا أحياناً كثيرة اتجاهات بعض الملوك الخطرة وأنقذوا الدولة والمجتمع من بعض الأخطار الهائلة المحدقة بها، والتدبير الذي كان يواجهه ويهدده، وذلك بإبادة آرائهم بصراحة، وانتقاد النيات الفاسدة وانحراف «البلاط» عن جادة الحق والصواب، إن تربيتهم وأمثلتهم العملية الحية ألهبت في الناس جذوة الجرأة والشجاعة، والنشاط والطموح، وتاريخ الهند الإسلامي زاخر بهذه الأمثلة، إن هؤلاء المشاهد غامروا مراً بِحياتهم وشرفهم، وأثروا الموت على الحياة وعملوا بمبدأ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» كلما دعت إليه الحاجة واقتضته الظروف.

وقد في هذا المكان مثالين من عهد «الملك الجبار» محمد تغلق، يدلان على شجاعتهم وصرامتهم واستهانتهم بمظاهر الأبهة والغطرسة، واحتقارهم للقناعات المقنطرة من الذهب والفضة.
السُفيفة في الهند وتأثيرهم في المجتمع

"لمَّا مر السلطان محمد تغلق بزاوية الشيخ قطب الدين منور، وكان شيخاً كبيراً في الطريق الجنوبي يعيش في عزلة عن الناس، لم يحضر عند السلطان لتحيته فطلب السلطان في دهلي، ولما حضر البلاط ودخل الديوان رأى الأمراء والوزراء والحكام ورجال البلاد واقفين سماطين، متخشعين مسلحين في هيئة تخلع منها القلوب، وكان معه ولده نور الدين، وكان حديث السن لم يزير "بلاط الملك في حياته فنزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعباً، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلًا: "يا وادي العظام الله! يقول نور الدين: إنني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء، وزالت الهيبة من نفسي وذابت. وبدا الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز، وسأل الملك الشيخ وعاتبه قائلاً: "إننا مرنا بزاويكم فلم تشرفونا بزيارتم وموضوعكم" فأجاب الشيخ إن هذا الفقير لا يجد بمقابلة الملك، إنه يعيش في عزلة، ويدعو للملك ولجميع المسلمين، فعليكم أن تعذروا في هذا الأمر، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه، إنه صاحب كثيراً من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً وإشفاقاً، أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه ليناناً وضعفاً، وما رأيت في يده ارتعاشاً بل صافحني بقوة وحراة زائدة واعتزاز نفس.

وقدم إليه الملك مئة ألف "تنكه" (قطعة ذهب) فقال الشيخ..."
سُبْحَانَ اللَّهِ، تَكْفِينِي أَقْتَانٍ مِنْ أَرْزٍ، وَسُمِنَ بَفْلِسٍ واحِدٍ، مَا ذَاٰ أَفْعَلَ بِهِذَهَا الآلَافِ مِنَ الرُّوْبَيْاتِ، وَلَكِنَّ يَقِيلُ لَهُ إِنَّ الْمُلْكَ يُسْخَطٌ إِذَا لَمْ يَقْبَلُ هَذِهِ الْهُدَىٰ، وَيَنَقُّمُ مِنْهُ، فَقَبِلَ الْشَّيْخُ أَلْفِيَ رُوبْيَةٍ وَقَسَمَهَا بِنَّ إِخْوَاهُ وَأَصْحَابِهِ وَذُوِّيَ الْحَاجَةٌ.

وَالْمَثَلُ الثَّانِي لِلْشَّيْخِ فَخْرِ الْدِّينِ الْرَّازِيِّ، وَكَانَ الْشَّيْخُ يَتَحَرَّرُ مِنْ مَقَابِلَةِ الْمُلْوْكِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّى أَرَايْ رَأْسِي مُفْصُولًا عَنْ جَسَمِي وَاًقِعًا عَلَى بَلاطِ الْمُلْكِ، وَكَانَ يَعْنِي أَنَّهُ يَسْقُولُ كَلِمَةَ حقٍّ يُؤَاخِذُهَا عَلَيْهِ الْمُلْكَ وَيَأْمُرُ بِضِرْبٍ عَنْهُ، فَفَطَلَ الْمُلْكُ يوْمَاً وَقَالَ لِهِ عَزْنَىٰ، فَقَالَ الْشَّيْخُ: أَكْمَلِ الْغِيظُ وَأَمَلِكْ غَضْبِكَ وَسُورَةَ النَّفْسِ، فَقَالَ الْمُلْكُ: أَيُّ غَضْبٍ وَسُورَةَ نَفْسٍ تَعَنِي؟ قَالَ: سُورَةُ السِّبَاعِ، فَأَحْمَرْ وَجُهُ الْمُلْكِ مِنْ فُوْرَةِ الْغَضْبِ وَلَمْ يَقَلْ شَيْئًاً، وَدَعَا بِالسِّفَرَةِ المُلْوْكِيَّةِ وَدَعَا لِتَتَنَوَّلُ الغَدَا، وَكَانَ يَضْعُ بَعْضَ الْلِّقَامَاتِ فِي هُهُ، وَتَتَنَوَّلُ الْشَّيْخُ هَذَا الْطَّعَامُ بِكَراَةٍ، وَوَدَعَ الْمُلْكُ بَعْدَ فَرَاغِهِ.

إِنَّ هُؤُلَاءَ الْمَشَآيِخِ وَ"الْصَّوْفِيَّةُ" ضَرَبُوا أَمْثَالًا رَائِعَةً فِي الْشَّجَاعَةِ وَالصَّرَاحَةِ وَالصِّدْعِ بَالْحَقِّ، كَمَا أَنَّ الْمُلْوَكِ الَّذِينَ لَا يَغْفِرُونَ لِلْعُلَمَاءِ "جَرِيَّةٍ" قَوْلُ الْحَقِّ سَلَكُوا بِالْصَّوْفِيَّةٍ فِي أَغْلَبِ (١) سِيَرِ الأُوْلَيَاءِ ص٢٥٣ ۔ ٢٥٥.
(٢) سِيَرِ الأُوْلَيَاءِ ص٢٧٢ ۔ ٢٧٢.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

الأحوال - مسلكاً رفیقاً وسمحوا لهم بأداء واجبهم الديني ومزاولة نشاطهم الإسلامي، وقد قام المشاهير بهذا الواجب في العهد الأخير، وحافظوا على كرامتهم، وغيّرهم وإبائهم، حضر الملك المغولي «شاه عالم» مرة في مجلس الصوفي الكبير والشاعر الشهير الشيخ «ميردرد» وكان برجله وقع فمدها قليلاً، فلم يتحمل الشيخ ذلك وقال: إن هذا الأمر ينافي آداب المجلس وكرامته، فاتخذ الملك بالعفة وطلب العفو فقال له الشيخ: إذا كانت بكم علة، فلم يكن هنالك داع لحضور هذا المجلس. (1)

الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الجاه:

إن الصوفية والمشاهير لم يقبلوا مناصب الحكم، وهدياً الملوك والأمراء، من أراضي وإقطاعات وصلات وجرائب، وامتنعوا عنها دائماً، ونصبوا مناراً عاليًا للقناعة والزهد والتوكل والمحافظة على عزة النفس وكرامتها، عاشت بفضلها في المجتمع الهندى الفتوة والهمة والطموح والثبات على جادة الحق، وحافظوا بذلك على كرامة الإنسانية وصانوا عرضها في هذه السوق السوداء التي تباع فيها النفوس والأرواح ببع السلع، وقد تباع بالمناداة و«المزاد العلني».

(1) كل رعنا (تذكرة شعراء الهند) للعلامة عبد الحكى الحسني، ص 171.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

لقد كان شعراءهم وهتافهم دائماً وفي جميع الأحوال، ما قال:

قاتل منهم في شعر فارسي:

"لا أحب أن أبيع خرفتي المتواضعة وثيابي البالية برائات الملك وأعلام السلاطنين، ولا أرضى بأن أهجر "فقري" حرضاً على مملكة "سليمان" إن هذا الكنز الذي اكتشفه في قلبي بفضل المجاهدة لا أريد أن أبادله برخاء الملك وراحتهم وتعنهم".

إن تاريخ التصوف في الهند حافل بأمثلة رائعة من الزهد والقناعة والاعتزاز بالنفس والكرامة والطموح والقناعة والإيثار، لا تخلو من هذه الأمثلة طريقاً صوفياً في هذه البلاد، ونقدم هنا عدة أمثلة من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وهو عهد رسمته فيه أقدم المادية في الهند.

كان الشيخ شمس الدين حبيب الله المعروف بميرزا جان جانان الدهلوي من شيوخ الطريقة النقشبندية المجدية (م 1191 هـ) قال له ملك الهند مرة: إن الله أعطاني مملكة واسعة فأرجو أن تقبلوا منها شيئاً. فقال الشيخ: إن الله تعالى قد وصف الدنيا بالخسة والهوان فقال: "قل: منعَ اللهُ قليلاً" أما مملكتكم فهي ولاية صغيرة من إقليم من أقاليم هذه الدنيا فلا أريد أن أرزأم في هذا الجزء الصغير، وقدم إليه مرة الأمير أصف جاه وزير المملكة المغولية في الهند عشرين ألف روبية فلم يقبلها، فقال الأمير: خذوها وقسموها على أهل الحاجة، فقال: إنني
لا أحسن هذا العمل فتولوا توزيعه بنفسكم فسينفد في الطريق فإن بقي منه شيء فسينفد بعد ذلك.

أراد مير خان أمير ولاية "تونك" أن يفرض رابتاً سنوياً لزائدة الشيخ غلام علي الدهلوسي فكتب إليه الشيخ بيتاً معناه:

«نحن لا نهين الفقر والقناعة ، ولا نخدش كرامتها ، قل لمير خان إن الرزق مقدر من عند الله تعالى.»

زار حاكم كبير للحكومة الإنجليزية الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (م 1313 هـ) وقال وقد أثرت فيه كلمات الشيخ وموعظته البليغة: إذا قبلتم عيّنا لكم مرتباً من الحكومة ، فقال الشيخ: ما أصنع بمالك ، إنني أملك من فضل الله سريراً وإبريقين من الفخار وجرتين للماء ، ويأتي بعض أصحابنا بالذرة فنصنع منها الخبز ، وتطبخ زوجتي شيئاً من الخضراوات تأكل بها ذلك الخبز ، وفي ذلك كفاية.

يروي الأستاذ محب الله أن الأمير كتب علي خان حاكم ولاية رامبور ، أبدى رغبته في أن يشرح الشيخ فسأله الأستاذ المذكور عما يقدم إليه إذا حضر ، قال: أهدى إليه مئة ألف روبية ، فذهب الأستاذ إلى مراد آباد وقال للشيخ: إن الأمير في شوق لرؤيتك ويدم إليكم مئة ألف روبية إذا زرتهم ، والشيخ يتحدث كأنه لم
السوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

يسمم شيئاً مهماً، ثم قال: يا هذا احتراب على المنئة ألف،

استمع قولي، وأنشد بيناً معناه:

«حينما نشاهد كرمه وفضله على هذا القلب، نجد القلب

أعلى وأغلى من جام جم»(1).

نشر العلم والثقافة:

العلم كان أكبر هؤلاء المشايخ وبغيتهم، إنهم حدبوا

عليه وخدموه، وكان أكثرهم صاحب ذوق أدبي وعلمي رفيع،

وكان عقيدتهم أنه لا يمكن معرفة الله سبحانه بدون العلم، وأن

الصوفي الجاهل ألعوبة الشيطان، ولذلك نراهم لم يستخفوا

لمدعاة إلى الله النجاء ذوي الكفاءة والاستعداد إلا بعد التحصيل

العلمي.

والحقيقة أن الفضل في الحركة التعليمية والنهضة العلمية في

الماضي يرجع إلى تشجيع هؤلاء السوفية والمشايخ إما مباشرة

وإما بواسطة، وكان القاضي عبد المقتدر الكندي والشيخ أحمد

الشهابي - اللذان انتهت إليها رئاسة التدريس في الهند - من

رجال الشيخ نصير الدين «جراغ دهلي» والمدرسين المشهور في

القرن الحادي عشر الشيخ لطف الله الكوروي الذي نفتتح به سوق

(1) كأس ملك إيران القديم «جيم» الذي يضرب به المثل في الغلاء

والورقة ويفتح أنه كان يتراءى فيه العالم.
الدرس والتدريس إلى القرن الثالث عشر كان شيخًا في الطريقة الجشتية.

نحن نرى المدرسة والزاوية جنبًا إلى جنب في أكثر الأدوار، فالزاوية الرشيدية في جونبور ومدرسة الشيخ بير محمد في لكهنو ومدرسة الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم في دهلي، وزاوية الشيخ رشيد أحمد في "كنكوه" أمثلة رائعة للجمع بين التثقيف العلمي والتربية الروحية والخلقية.

الكفاءة والمؤاساة:

ومن أثار هؤلاء المشايخ وزواراهم أنها كانت مأوى لأوئي إليه آلاف من الناس، ويجدون فيه طعامهم وشرابهم ومرافق حياتهم، إن هذه المائدة الملوكية الفاخرة، كانت مائدة عامة يردها الصديق والعدو، والقريب والبعيد، والغني والفقير، وكانت مائدة الشيخ نظام الدين مشهورة يضرب بها المثل في السعة وكثرة أنواع الطعام واللذة والتأنث.

وكان يحضر زاوية الشيخ سيف الدين السرحوني ألف وأربعمئة رجل يتناولون الطعام على مائدة صباح مساء، كل حسب رغبته واقتراحه.

أما الشيخ السيد محمد سعيد الأنباولي، وهو من رجال القرن الثاني عشر، فيسجل عنه مترجمون يقولون:
لم يكن عدد المشتغلين في زاويته أقل من خمسة نسمة في الزمن الأول وهكذا فقل عن الوافدين إليه والزائرين له).

زاره مرة روحين الدولة وكان أميراً من أمراء السلطان فرح سير وقدم ستين ألف روبة لبناء زاويته، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكان ويستريح، فانصرف «روحين الدولة» فأرسل الشيخ إلى الفقراء، وأرسل هذا المال إلى اليتيمى والمساكين وأهل الحاجة في «أنيبال» و«شهيرس» و«سرهد» و«باني بيت» حتى لم يبق منه فلس، فلما أتى روحين الدولة قال له: لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة، والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله، ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرح سير والأمير روحين الدولة، والأمير عبد الله خان، وأمر بثلاثمئة ألف روبة فوزعوا كلها في القرى المجاورة والأشراف الساكنين فيها.)

وصدق الأستاذ مناظر أحسن الكيلاني إذ قال: إن هذه الزوايا وحدها كانت نقطة اتصال بين الأغنياء والفقراء، وكان منزل هؤلاء الصوفية والمشاعر «بلاطاً يدفع له السلاطين الخراج، فقد كان يحضر ولي العهد خضر خان عند...

(1) نظام التعليم والتربيه (الأردو) المجلد الثاني، للاستاذ مناظر أحسن الكيلاني.
الشيخ نظام الدين ويستفيد منه، وهكذا السلطان علاء الدين الذي كان يأتيه الخراج من الهند كلها كان مضطراً إلى أن يقدم الخراج إلى مكان آخر.

إن هذه الوحدة والانسجام بين الغني والفقير أعني طبقة الصوفية والمشاطخ التي كان يحضرها ويستفيد منها الأغنياء والفقيراء على السواء كانت تقضي حاجات الطبقة الفقيرة، والحقيقة أنه لم يخل دور من أدوار التاريخ الهندي ولا بلد من بلاد الهند إلا وقد عمل فيه الصوفية والمشاطخ بالحديث النبوي المشهور "توصى من أغنيائهم وترد على فقراءهم" فكان ذلك رحمة بالفقراء والمساكين وذوي الحاجة.

ملاحظة إنسانية:

إن تعليم هؤلاء الصوفية ومجالسهم الروحية أنشأت في الناس حب الإنسان على اختلاف الديانات والثقافات والسلالات، وخدمته، وإيصال الفوائد إليه، ومشاركته في الهموم والآلام. كان شعارهم وعملهم بالحديث النبوي: "الخلق عيال الله فألحهم إلى الله أنفعهم لعياله" كانت قلوبهم فائضة بالرحمة والمواصلة للإنسانية كلها، حدث الشيخ نظام الدين عن نفسه مرة فقال: "أتمنى رجل ويجي لي قصته، وفي نفسي من الهم والألم.

(1) نظام التعليم والتربية ص 27.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

والتوجه لحاله ما لا يجده هو نفسه(1).

وقال مرة: لا شيء أعلى وأحب يوم القيامة من
المواساة، وجب القلب المنكسرة، وإدخال السرور على
أصحابها(2).

كانت نتيجة ذلك أن جرحى القلوب والفؤاد كانوا يجدون
بلسماً لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأ لهم، إن حجر
عطفهم وحبهم كان مفتوحاً لكل من هجره المجتمع أو الأسرة أو
تنكر له الحظ، وأدبرت عنه السعادة، إن هؤلاء الذين لم يقبلهم
أبناء أسرتهم أو طردهم أولادهم بعض الأحيان كانوا يقدمون إلى
هؤلاء الصوفية والمشائخ ويعيشون في أحضانهم وفي كنفهم،
ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس الأحبة، ويزور
هذه الزوايا كل رجل مهما كان نسبه أو دينه فيجد فيها الإسعاف
والرفد وخلاصاً من هموم القلب وأحزانه وينال فيها الغذاء
والدواء، والحب والعطف، والتقدير والإكرام.

لما أرسل الشيخ نظام الدين شيخه إلى دهلي قال له:

(1) سير العارفين نسخة خطية.
(2) أيضاً ص 28.
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع

«ستكون كدوحة وارفة الظلال، يستريح خلق الله في ظلها» (1).

والتاريخ يشهد بأنه قد استراح في ظل الوارف الوفادون من دلهي، ومن أنحاء بعيدة سبعين سنة كاملة.

لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند استراح في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة.

* * *

(1) سير الأولياء.
إن المسلمين مع امتجاههم بالعنصر الهندي وتأثيرهم الواسع العميق بطبيعة البلاد وشعوبها وثقافتها الذي نوه به "جواستاف لوبون" في كتابه "حضارة الهند" لا يزالون شعباً ممتازاً في أخلاقه وطبيعته واتجاهاته ومنهج حياته، وعاداته التي أصبحت طابعاً يتميز به المسلم في كل ناحية من نواحي الهند، وهي الرابطة التي تربط المسلم في الشرق بأخيه المسلم في الغرب، والمسلم في الجنوب بالمسلم في الشمال، حتى يكون أشبه به من مواطنه الهندوكي الذي يعيش بجواره ويتكلم بلغته.

إذا قدر للقارئ الكريم أن يزور الهند من بلاد بعيدة ويختلط بالشعوب الهندية، ويدخل في المجتمع الهندي، لاحظ أن هناك شعرين ممتازين، وحضارتين ممتازتين، ومجتمعين ممتازين، وتجلى له هذا الامتياز في مختلف نواحي الحياة، وفي مختلف مظاهر المدنية، وفي الأخلاق والتزعمات.
المسلمون في الهند شعب ممتاز

إذا كنت ضيفاً عند صديق لك مسلم - وليس من اللازم أن تسبق بينكما معرفة أو تقوم بينكما صداقه - فالمسلم أخو المسلم، والمسلم الغريب ضيف أخيه المسلم المقيم، قدمت إليك مائدة واسعة فيها أوان كبيرة وصحون واسعة - بخلاف الطريقة الهندية القديمة - وأرغفة كبيرة، وكمية من الطعام كبيرة تفضل على الضيوف ويجتمع عليها الضيوف وتفتتح أيديهم في الصحون إن أحبوا ذلك، فالقلب واسع، والبيت واسع، والمائدة واسعة، وتجرب ذلك في كل بقعة من باقى الهند، وفي كل أسرة إسلامية، اللهم إلا إذا انتفقعت صلتها عن الحضارة الإسلامية، وعاشت في المجتمع الهندي القديم واندمجت فيه.

وإذا أراد واحد من المسلمين أن يأكل في القطار أو في غرفة الانتظار لا بد أن يدعوك إلى الطعام، ويلج عليك.

إن هذا الاختلاف بين حضاراتين عاشتا في الهند جواً بجوار، وإن هذا الاختلاف في طبائع شعبيين هنديين لا يزالان يعيشان في دار، وإن هذه الأناقة التي تسم بها الحضارة الإسلامية في الهند، ورحابة الصدر واحتراز الإنسانية الذي يمتاز به المسلمين في الهند استرعى انتباه كثير من الزائرين والرحلين من خارج الهند، وقد أخرى ذلك بعض الأذكاء والناخبين بدراسة الإسلام وروح الحضارة الإسلامية والاقتناع بالدين الإسلامي الذي خلق في أتباعه هذا التسامح وهذه النظره
المسلمون في الهند شعب ممتاز

الواسعة واحترام الإنسان وحب الأناقة والنظافة في كل شيء ورفع مستوى الحضارة، وكان سبأ في إسلام بعضهم. وقد حكى العلامة محمد إقبال قصتين طريفتين لبعض أصدقائه الإنجليز نقللهما هنا:

يجكي المستر داود آبسن (David opson) الصحفى الإنجليزي الذي كان يصدر من لاهور صحيفة إنجليزية مشهورة قصته إسلامه يقول فيها: قدمت من انكلترا وأقامت في بمبائي، فكان أصدقائي الرجال الذين كانوا يسهمون في الحركات السياسية، ولم تكن لي صلة بالأوساط الدينية في بمبائي، وبدأت أستمهم في الحركات السياسية في الهند، وهناك قابلت بعض المسلمين وبدأت أتربية إليهم، مرة دعاني مسلم وجهي إلى تناول الغداء عنده، ومدت مائدة على الطريقة الإسلامية، وقدمت أطعمة شائعة في الشعب الإسلامي، وأعجبت بالأنثى وسلامة ذوق الشعب الإسلامي ولطافته وقلت في نفسي: إن شعباً رقت حضارته وكمت آدابه، وبلغ من سلامة الذوق ولطافة الحس هذا المستوى الرفيع لا بد أن يكون على مستوى رفيع في الدين والروحانية، ويتصف بالنظافة والأناقة في كل شيء، وهكذا أقبلت على دراسة الإسلام وحياة المسلمين، وتبين لي أن الإسلام على قمة من العلو والظرفة، بعيد في كل شيء عن السخافة والسماحة والإسفاف، وتجلب هذه الأناقة
المسلمون في الهند شعب ممتاز

والرقة والسمو في حضارته وفي طعامه ولباسه كما تتجلى في عباداته وفي أعماله وأخلاقه، وكل من يدين بالإسلام ويدخل فيه يعلو عن المستوى الذي قد عاش فيه.

والقصة الثانية قصة عالم إنجليزي قدم إلى الهند ليضع كتاباً عن الحياة في قرى الهند، ودعاه الاختلاف الذي شاهده في السلوك القروي المسلم والقروي الهندوكي ونظرتهما إلى الإنسان إلى أن يحب الإسلام وأهله ثم يدخل في الإسلام، ولنسعم قصته كما حكاها الدكتور محمد إقبال: يقول العالم الإنجليزي:

"كنا نتجول كل صباح ومساء بين المزارع والحقول في قرى الهند، واتفق لنا أن خرجنا من منزلنا في الصباح وابتدنا عن محلة وكان الزمن زمن الحصاد وكان الرجال والنساء مبتعثين في الحقول يحصدونها، وعشت وبحثت عن الماء فلم أجد إلا عند فلاحة وكان الماء في جرة صغيرة، وأشاروا إلي بأن أجمع كفي، وجعل الفلاح يصب من فوق وأنا أكرع كأكلدة ورويت وانصرفت، ولم أمش خطوات إلا سمعت هدة، والتفت ورائي فإذا بزوج الفلاح قد رمات الجرة على الأرض فكان لها صوت، وقد انفجرت تسب زوجها، و... تؤنبه تأنيباً شديداً لأنه نجس الإنسان وضيعه، وعجبت من هذا السلوك ومن إهانة الإنسان للإنسان، وأن يعامل أحد بني جنسه معاملة الكلاب."
وعطشت مرة أخرى فكانت التجربة مختلفة عن التجربة الأولى كل الاختلاف، طلب رفيقي له الماء من فلاح آخر فاستقبله بالابتسام والترحيب، وقدم إلي إناء من خزف وأردت أن أجمع كفي وأكرع كالمرة الأولى فضحك الفلاح، وقال: لا داعي إلى هذا اشرب هنيئاً، وشربت في حرية، وانطلقنا وأنا أنتظر أني أسمع هدلاً الأولي، وانتظرت أن أسمع تأنيباً من امرأة الفلاح كما سمعت أول مرة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فتعجبت لهذا الاختلاف الواضح بين رجلين من طبقة واحدة، ومن بلد واحد، وسألت عن السبب وقيل لي: إن الفلاح الثاني مسلم لا يعتقد نجاسة الإنسان بل يؤمن بكراحته وشرفه، ويؤمن بأن الناس كلهم من آدم وآدم من تراب، وهكذا علمه القرآن وعلمه رسول الإنسانية، ولذلك انتشر الإسلام هذا الانتشار الواسع في القارة الهندية، وكان ذلك سبب عنايتي بدراسة الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي وسبب اهتدائي للإسلام.

ومن سمات هذا الشعب الإسلامي الهندي وطبيعته حب للنبي العربي حياً أصبح له شعراً وسما، وظهر في حياته وأدبه وشعره، وقد نبغ في الهند أشعر شعراء «النبيات» والمدائح النبوية - بعد الجامع والقدسي وبعض شعراء إيران - ونظمت فيها أبلغ قصائد ومنظومات وأبيات في المدح النبوي، ونشأ أدب
المسلمون في الهند شعب ممتاز

زاخر قوي ومكتبة عظيمة غنية في الشعر الفارسي والأردي والهindi في ملح النبي، ووصف حليته وشمائه ونظم سيرته وغزواته، فيه كل معجب مطبب يثير الحنان، ويقوي الإيمان، ويبدل على قوة العاطفة الدينية والحب العميق المخلص والشاعرية القوية، ونبغ في هذا الموضوع شعراء كبار، وانقطع بعضهم إلى هذا الموضوع ووهبوا له قريحتهم وواهبهم وحياتهم.

ومما يمتاز به الشعب الإسلامي الهندي: اتساع أفقي فكره، وحرصه على الاتصال بالعلم، وتمرده على حدود العنصرية والقومية الضيقة، والوطنية المحدودة، ونزعته الدائمة إلى العالمية والآفاقية، وذلك سر انفاذه إلى كل حركة ترمي إلى الوحدة الإنسانية والجامعة الإسلامية، ولذلك لم يزل هذا الشعب يعطف على القضايا الإسلامية ويتبعها، ويتآمل لها ويتور كأنها قضيته الخاصة، وقد ظهرت هذه الحماسة وهذا العطف في أروع مظاهره زمن حركة الخلافة، وقد اكتسب لها الشعب سخاء وأريحة وحماسة لم تعرف في قضية أخرى، وهكذا ظهر منه في حرب طرابلس وبلقان من الاهتمام بأمر المسلمين والتآلم بما نابهم، ما يدل على قوة الإيمان بالجامعة الإسلامية، وقد اهتم بقضايا فلسطين وعقد عدة مؤتمرات لهذه القضية في عواصم الهند وشاركت الصحف في القضية، وذلك سر عدم انجراف هذا
الشعب في سبيل الحركة القومية الهندية انجرافاً يفقد شخصيته، ويقطع صلته عن العالم الإسلامي ويحمله على تقديسها والغو في تمجيدها.

ومن خصائص هذا الشعب الإسلامي الهندي شدة تعلق قلوب أفراده بمهد الإسلام ومنزل الديني ومدينة الرسول ﷺ والحنين إلى مكة والمدينة، فقد تغني بذلك شعراؤهم قديماً وحديثاً، وعاش الشعب الإسلامي الهندي في هذه الأمينة العزيزة اللذيذة العامة والخاصة حتى عرف ذلك عنه، وغير المسلمين بذلك غلالة الوطنية والقومية، وححدوا على هذه العاطفة الدينية القوية التي تربطهم بالخارج ربطاً روحيًا فهي تنافى في زعمهم الإخلاص للوطنية والحماس القومي (1). وفي الحقيقة لا منافاة بينهما، فالإنسان يستطيع أن يجمع بين الحب لوطن روحي وجسمي، فالجزيرة العربية هي البقعة التي أشرقت منها نور الإسلام وأُنذق المسلمين من براثن الجاهلية والوثنية، وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهم ينظرون إليها كمنتقذ ومرشد ومعقل للإسلام ومركز

(1) يدل على ذلك كلمة لكاتب هندي نشرتها صحيفة هندوكية يقول فيها: "إن المسلمين الهنود يعتبرون أنفسهم أمة متصلة متميزة، ولا يزالون يتحون ببلاد العرب ويحنون إليها، ولو استطاعوا لأطلقوا على الهند اسم العرب".
المسلمون في الهند شعب ممتاز

للثقافة، ويحجز إليها في عدد كبير كل عام.
ولا يزال هذا الشعب ممتازاً في كثير من أخلاقه وعاداته
وخصائصه رغم احتجاز عظيم أعظم أصيب به هذا الشعب بعبأ
للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية، ورغم تطور عظيم
حدث في الحضارة والقيم الخلقية، فلا يزال ممتازاً - في أكثر
الأحوال - في القدرة الإدارية وسرعة القضاء وقوة التنفيذ،
ولا يزال كثير من أفراده يشغلون مناصب خطيرة ومراكز ذات قيمة
أهمية، ويمتازون بالأمانة ومجانبة الرذائل الخلقية، لذلك
يتمعرون بثقة الحكومات، وتوسّد إليهم أمور ذات بال وقضايا
ومراكز تقتضي الأمانة الفائقة والاستقامة الظاهرة والذكاء النادر.

* * *
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

كان مركز المسلمين القائد في حركة تحرير الهند وإجلاء الإنجليز - وقد كان ذلك طبيعياً - لأنهم هم ولياء البلاد وساحتها حين احتل الإنجليز هذه البلاد، وبدأ الأخطبوط الإنجليزي ينفث سمومه، ويتتبّع هذه البلاد قطعة قطعة وإمارة إمارة.

وأول من انتبه لهذا الخطر الملك الهمام الشهم الغيور "فتح علي خان" المشهور بالسلطان تيبو (1213 هـ - 1799 م) الذي عرف بعد نظره وألمعيته أن الإنجليز سيزدردون هذه البلاد كلغة سائغة إذا لم تقم في وجههم قوة منظمة، فحارب الإنجليز بكل ما كان يملكه من قوة حربية وعدة وعتاد، وحرص أمراء الهند وأعيالها على الفضاء على هذه الجرثومة الإنجليزية السامة، وحاول الاتصال بالسلطان سليم العثماني والملوك المسلمين وأمراء الهند، وراسلهم، وظل يحارب الإنجليز حرباً عنيفة.
لا هوادة فيها، وكان ينهار كل ما بناء الإنجليز وأملوه في الهند لولا أنهم نجحوا في ضم أمراء الهند في جنوب الهند إلى معسكرهم، وسقط الملك المجاهد صريعاً في المعركة، (في اليوم الرابع من مايو سنة 1799م) وفضل الموت في المعركة على الأسر في يد الإنجليز والحياة في ظلهم وتحت رحمتهم وقال كلمته الخالدة المأثورة في التاريخ: «يوم من حياة الأسد خير من مئة سنة من حياة ابن آوى» ولما بلغ القائد (Horse) شهادة السلطان، حضر ووقف على جثته وقال: «اليوم الهند لنا».

ولم تعرف الهند - في تاريخها الطويل - قائداً أعلاه هم، وأبعد نظراً، وأشد غيرة على الدين والوطن، وأعظم عداء وغضاً للمحتل الأجنبي، من «تيبو سلطان» ولم تكن في الهند شخصية أغبض إلى الإنجليز وأثقل عليهم من تيبو، حتى ظلوا زمناً طويلاً - وقد أدركنا ذلك العصر - يسرون كلابهم باسمه شفاءً لقلوبهم وإهانة لرمز الوطنية والجهاد.

ثورة عام 1857م

وثرت الجنود الإنجليزية في مايو سنة 1857م بعد ما جرب Young

(1) كتب الزعيم غاندي مقالة في صحيفة «الهند الفتاة» أشاد فيها بعظمة السلطان ووطنيته وتسامحه وقال: India لا نعرف أعظم منه في شهداء الوطن والأمة.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

الهنديون الحكم الإنجليزي وعطرة الإنجليز، وانتهائهم لثروة البلاد، وقلة احتفالهم بالعاطفة الدينية، وكرامة أهل البلاد، وانتشارت الثورة في الهند انتشر النار في الهشيم، فكانت ثورة شعبية عامة ساهم فيها المسلمون والهنداد سواء سواء، وتوجه الثوار إلى دهلي مقر الملك المغولي الأخير سراج الدين بهادر شاه (1)، وجعلوه قائداً للثورة ورماً للوطنية الموحدة والكفاح الشعبي ونادوا به ملكاً للهند شرعياً، وخليفة آبائه ملوك الهند الصناديد المغول الأباطرة، وقاتل الثوار في كل بقعة من بقاع الهند تحت رايته وباسمه، ينظرون إليه كزعيم للجهاد الديني والوطني، وينظرون إلى دهلي كعاصمة الحكومة الهندية الدائمة ولم يشذ عن ذلك شاذ (2).

وبالرغم من أن هذه الثورة أو حرب التحرير - كما يصح أن تسمي - كانت شعبية عامة يقاتل فيها المسلمون والهنداد جنباً بجنب، ولم تعرف الهند حماسة وطنية ووحدة شعبية قبل هذه، كان للمسلمين السهم الأكبر في القيادة والتوجه، وكان منهم العدد الأكبر والأهم من القادة والزعماء، وقد صرح السروليم (3).

(1) كان حكمه محدوداً في القلعة الحمراء والإنجليز يحكمون البلاد باسمه ونيابة عنه.

(2) إلا السيخ - مع الأسف - وبعض الأمراء الذين قمع الإنجليز بهم الثورة.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

هنتر بـ أن جمـرات الجهاد التي أـشعلها السيد أحمد الشهيد
(1242 هـ) هي التي أـلهبت نار هذه الثورة.

وـقد كان من أـكبر العلماء والمشايخ الذين قادوا الثورة وأـشهرهم مولانا أحمد الله ومولانا لياقت علي، وـهما اللذان تـزعمتا المـركبة، وـكان الجنرال بخت خان هو القائد العام ونائب الملك (1)، وـكان للـ حاج إـمداد الله الـتهاني، ومولانا محمد قـاسم النـانوتي، ومولانا رـشيد أحمد الـكنكوهي، والـحاـفظ محمد ضاـمن الشهيد، وـغيرـهم من العـلاء والـمشايخ سـهم فيـها، وـخاضوا في بـعض المـعارك، وـقد ذـكر الكاتب الهندوـسي المعروف سـندرلال عدلاً من كـبار المـساهمين في هـذه الثورة المسلمـين منهم خان بهادر خان، بير علي، علي كـريم.

ويكتب هومز: كـان مولـوي أحمد الله شـاء أـكبر أـعداء الإنجليز في شمال الـهند، يـقول سندرلال: مـا من شـك أن اسم الشـيخ أحمد الله شـاء من شـهداء 1857 م سـيخلـد محترمًا في تـاريخ شـهداء الحرية في الـعالم (ست سـتاون 208).

وـكتب مالي سن: كـان المولـوي (أحمد الله) رجلاً مـحيراً للـعقل وـقد عـثر على عدة دلائل وـبرهان تـثبت صلاحـيته كقائد

(1) كان من جمـاعة السيد أحمد الشهيد بـائع أـحد رجـال طرـيقيته، وأـخذ منه الشـيخ العهد والميثاق لـقتال الإنجليز.
لحركة الثورة، فلا يستطيع أحد غيره أن يدعي الفخر والاعتزاز
أنه هزم «السير كلال كيب بل» في ميدان القتال مرتين.
وأضاف يقول في كتابه: كان أحمد الله شاه وطنياً مخلصاً،
فلم يطخ سيفه بدما عن عازل عن السلاح، يحارب بجرأة
وصمود في ساحة القتال، أولئك الأجانب الذين كانوا اغتصبوا
وطنه، ويجب على كل بطل ومخلص في كل بلد أن يذكر
المولوي أحمد الله باحترام وإكرام.
ويكتب هومز: مهما يكن الأعداء وحشين وقساة كان قادهم
صالحاً لقيادة الجيش العظيم، وحماية هدف نبيل عال من كل
ناحية.
ولما أخفقت هذه الثورة - لأسباب شرحت في الكتب التي
ألفت في هذا الموضوع - صب الإنجليز على أهل الهند جام
غضبهم وانتقموا منهم انتقاما شديداً (١) وبطشوا بالهنديين - شعباً

(١) وقع من الثوار - المسلمين وغير المسلمين - الاعتداء على
البنفس البريئة والضعيفة والناس والآباء والأطفال من الإنجليز في
بعض المناسبات، وتحطموا حدود الدين والأخلاق والمروءة في
هؤلاء ثورتهم وفقد النظام ولكن ما وقع من الإنجليز مقابل ذلك
لا يعلل إلا بالجنون والهمجية والضراوة بالدم الإنسانى،
ولا يليق بأمة مثقفة تترعّم العلم والمدنية.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

وأما بطلة جبار لا يعرف الرحمة، ولا يعرف العدل، ولا يعرف الإنسانية، ولا يعرف الحدود، وكانت مجزرة هائلة جدت ذكرى مذابح جنكيز وهولاكو، وقد قتلوا ثلاثة من أبناء الملك الشبان المأسورين بعد ما أعطوه الأمان والعهد والمعيث بهمجية وقسوة استعوض عنها كثير من الإنجليز، وقد شنقا ثلاثة وعشرين من أبناء الأسرة الملكية فيهم مرضي وزمني وشيوخ عجز (1) وأهانوا الملك وحاكموه محاكمة مهينة ذليلة، وكانوا حريصين على قتله أشع قتلة إلا أن ضابطاً منهم كان قد وعد أن يحافظ على حيته ليسلم نفسه إليه فحكموا عليه بالنفي المؤبد إلى «رنجون» حيث مات طريداً وشريداً مقتراً عليه في الرزق مضيئاً عليه.

ودخلت الجيوش الإنجليزية في دهلي فكان تفسيراً لقوله تعالى: "إن الملك إذا دخلكوا قرية أفسبدوها وجعلوا أزنتها أهليها دينية" (2).

وقد أذن للجيوش في نهب العاصمة ثلاثة أيام فطبقته تطبيقاً فظيعاً، وقد كتب «جون لورنس» الحاكيم الإنجليزي المشهور في ديسمبر 1857م إلى القائد الإنجليزي:

1- "أعتقد أن الطريقة التي انتهينا بها جميع الطبقات من غير

(1) الأستاذ ذكاء الله في "عروج سلطنت انكلشية" ج 3 ص 708.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

182

تمييز بينها ستصب علينا السخط العام وستصب عليها اللعنات إلى الأبد وإننا نستحق ذلك»).

وقامت سوق القتل والنهب في دهلی على قدم وساق، والدماء تسفك، والручاص يطلق من غير تمييز والبيوت تنهب، وقد خرج كل من استطاع أن ينجب بنفسه وأهله وعرضه، حتى أصبحت المدينة التي كانت عروس البلاد وعاصمة الهند مقفرة موسحة ليس فيها إلا البيوت الخاوية، والانقاض المتراكمة والجثث المتعفنة، أو الجنود المفترسة، وليک تصوير البلد من قلم قائد قواد الجيوش الإنجليزية (Roberts) وقد كان مسافراً بجيشه من دهلی إلى كابور يقع الثورة، وكان ذلك اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر 1857م بعد ما استولى الجنود الإنجليز على دهلی وتمكنوا القلعة الحمراء(1) يقول روبرتس في كتابه «إحدي وأربعون سنة في الهند»:

2 - كان المسير من دهلی في نور الصباح الباجى وكان منظراً هائلاً، خرجنا من القلعة من بابها الذي يسمى باب لاهور، ومرنا بالشارع الكبير الذي هو مركز البلد وأكبر أسواقها جاندنی

Basworth Smith Life Of Lord Lawrence V-2-p. 158 (1) القلعة الحمراء بناء الإمبراطور شاه جهان، وكانت مركز الحكومة المغولية، وكان فيها في العهد الأخير بهادر شاه.

(2) القلعة الحمراء بناء الإمبراطور شاه جهان، وكانت مركز
قد كانت دهلي في الحقيقة مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب، فلا صوت إلا صوت سنابك الخيل، ولم يقع بصرنا على عرق يبض أو عين تطرف، لم تكن هنالك إلا جثث هامدة مبعثرة هنا وهناك، وقد كانت هذه الجثث في أوضاع مختلفة خلفها صراع الحياة والموت في أدوار مختلفة من التفكك، وكنا لا نتكلم إلا همماً حتى لا نزعج هؤلاء الأشقياء الذين كانوا مستغرقين في نوبة الموت، إنما رأيناهم من المناظر كانت هائلة مفروزة وكانت مؤسفة محزنة، وقد كانت بعض الجثث ينتهشها كلب، وكان عند بعضها نسر يرفرف جناحه وحاول أن يطير فلا يستطيع بفرط الشبع والثقل، وقد كان بعض الأموات يتراءون أحياء فقد رفع بعضهم يده في الاحضار فبقيت مرفوعة كأنه يشير إلى جنب، لقد كان منظراً مهيباً موشياً لا يمكن تصويره، وكان خيلنا قد استولي عليها الذعر فكانت تتجف وتتفتح مناخراً، وقد كان المحيط كله مروعنا ولا يمكن تصوره، وقد كان تعفن بروائح مبكرة تولد الأمراض (1).

(1) Lord Reberts: Forty One Years In India, p.142
الدور الذي قام به المسلمين في تحرير الهند

المسلمين هم مصدر الثورة وأصحاب فكرتها وهم الذين تولوا كبرها، يقول كاتب إنجليزي (Henry Mead):

3 - إن هذه الثورة لا يصح في المرحلة الحاضرة أن تسمى ثورة الجنود لقد اندلعت الثورة منهم ولكن سرعان ما تجلت حقيقتها وظهر أنها ثورة إسلامية.

ولذلك كانوا يخصصون المسلمين بالقتل والبطش، يقول مؤرخ معاصر:

4 - قد كان شعار بعض رؤساء الإنجليز أنهم كانوا يعتبرون كل مسلم ثائراً وكانوا يسألون الرجل أنت هندوكي أو مسلم؟ فإذا قال مسلم فتله بالرصاص (1).

ويقول:

5 - إن هؤلاء الإنجليز كلما رأوا مسلماً عليه مسحة من جمال أو له جسم قوي اقتضىه وشوفوا قلوبهم بقتله ، وقد قتل عدد كبير من الوجهاء والأشراف وأصحاب البيوتات الذين بقوا في البلد، كانوا يقتلون الأبناء الشبان أمام آبائهم الشيوخ، ويقولون لموالد العجوز: انج بنفسك، وقلما أفلت من أيديهم مسلم جميل الوجه صاحب حسب ووجهة حتى أثر ذلك في النسل، وأصبح لا يولد في دهلي مولد فيه الوسامة والجمال، فإذا قارن أحد

الأسئزة ذكاء الله الدهلوي "عوروج سلطنت انكلشية" ص 712.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

بين المسلمين قبل الثورة والمسلمين بعدها رأى فرقةً واسعاً بين الجيلين في الجمال والوسامة (1).

ثم جاء دور الشنق، ونصبت مشانق وأعواد على الطرق العامة والشوارع، وأصبحت مواضع نزهة عامة يتفرجون عليها الإنجليز ويتعمرون بمناطق اح羂ضار المشنوقين وهم يدخلون ويتحدثون، فإذا تم عمل الشنق ولفظ المشنوق نفسه الأخير، استقبلوه بالضحك والابتسام، وفي هؤلاء الأشقياء أصحاب الإمارات وكبار الأشراف، وقد شنق بعض الأحيان الإسلامية على بكرة أبيها، ويذكر مؤرخ معاصر:

٦ - إن سبعة وعشرين ألفًا من المسلمين قتلوا شنقًا، واستمرت المجازرة سبعة أيام متواصلات لا يحصى من قتل فيها، أما السلالة التيمورية فقد حاول الإنجليز أن يستأصلوا شأفتها فقتلوها حتى الصبيان، وعاملوا النساء معاملة همجة تشعر منها الجلدود (2).

يقول ميلي سن:

٧ - إن ضباط جيوشنا كانوا يقتلون المجرمين من كل نوع،

(1) الأستاذ ذكاء الله الدهلوى "عروض سلطنت انكلشية" ص ١٢٧.
(2) السيد كمال الدين حيدر في "قصير التواريخ" المجلد الثاني ص ٤٥٤.
الدور الذي قام به المسلمين في تحرير الهند

وكانوا يشتقون من غير رحمة وألم كأنهم كلاب أو بنات آوى أو حشرات خسية\(^{1}\).

ويقول قائد قوات الجيوش الإنجليزية في رسالته كتبها إلى أمه في 21 يونيو سنة 1857م:

\[8\] إن أهل اليوم طريقة للإعدام هو أن يرمى المجرم بالمدفعة، إنه حقاً منظر هائل ولكن لا نستطيع في هذا الوقت أن نأخذ بالاحتياط، إن هدفنا أن نثبت للمسلمين الأشرار أن الإنجليز لا يزالون بنصر الله سادة الهند\(^{2}\).

وهكذا دفع المسلمون أبهظ ثمن وأغلاله لهذا الجهاد، وظل قادة الفكر والسياسة وأقطاب الحكومة من الإنجليز يعتقدون أن المسلمين هم المسؤولون عن ثورة 1857م، لا يتخلون عن تبعاتها جيلاً بعد جيل، وقد قال هنري هملتن تامس "\(\text{Hamilton Thomas Late}\)كتابه "ثورات الهند الماضية وسياستنا المستقبلة" الذي ألفه في سنة 1858م يعني بعد الثورة سنة فقط، والكلمة تشرح عقيدة الإنجليز ووجهة نظرهم عن المسلمين بعد الثورة، يقول:

---

(1) ميلي سن، ج3 ص177.
(2) تامس، ص40.
الدور الذي قام به المسلمين في تحرير الهند

9ـ لقد قدمت أن الهندوك لم يكونوا أصحاب الفكرة في ثورة 1857 ولم يكونوا مصدرها، وسأثبتت في هذه المناسبة أن الثورة كانت نتيجة مؤامرة المسلمين، إن الهندوك إذا تركتهم الحرية وكانوا محدودين في وسائلهم لم يكونوا ليساهموا في مثل هذه الثورة وما كانوا يودونها، إن المسلمين لم يزالوا ولا يزالون منذ عهد الخليفة الأول مستكبرين غير متسامحين، وظالمين، لم يزل هدفهم الدائم أن تقوم الحكومة الإسلامية بأي وسيلة كانت، وأن ينشأ الناس على كراهة المسيحيين، إن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعيًا وفية لحكومة تدين بغير دين الإسلام لأن ذلك مستحيل في ظل أحكام القرآن.

وقد كانت هذه هي السياسة المتبوعة في الحكومة الإنجليزية القائمة. وهي القاعدة التي يسير عليها موظفوها الكبار، ورؤساء المصالح، إقصاء المسلمين عن المراكز الكبيرة في الحكم والإدارة، وسد أبواب الرزق الشريف عليهم، ومصادرة الأوقاف والأملاك التي تدر على مدارسهم ومؤسساتهم، وتأسيس مدارس ونظام تعليمي لا ينشط المسلمون للإفادة منه (1)، وقد كان يعلن في بعض بلاغات رسمية أن الوظائف

(1) أقرأ تفصيل ذلك في كتاب و. هنتر "مسلمو الهند"

W.W.Hunter: Indian Mussulmans.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

الفلانية لا يقبل فيها إلا الهنادك (1)، يقول هنتر: "إن المسلمين وإن كانوا يملكون المؤهلات والكفاءة المطلوبة لوظيفة، ولكنهم يمنعون عن ذلك ببلاغ رسمي" (2).

وقد كان غضب الإنجليز شديداً واضحاً في قضايا المسلمين كلها، فكانوا يؤخذون بأقل تهمة وأبعد وشائعة، وكانوا يؤخذون بالظلمة ويعاقبون أشد العقاب، وقد حارب الإنجليز فل المجاهدين المعتصم في الجبال في حدود الهند الشمالية الغربية حرباً شعواء، وأتفقوا في ذلك نفقات باهظة وتحملوا خسائر عظيمة، وحاكموا في الهند كل من ظنوا به أقل اتصال بهذه الجماعة - جماعة السيد الإمام أحمد الشهيد حاكموا جماعة من العلماء الأجلاء والمثقفين والوهجاء والتجار في ببنه و"تهانيسر" و"لاهور" سنة 1864 م محاكمة ظهر فيها حقد الإنجليز وتوترهم من المسلمين بصفة عامة، ومن هؤلاء الذين سماهم الإنجليز وأعوانهم "وهابيين" بصفة خاصة وحكموا على مولانا يحيى علي ومحمد جعفر التهانيسري ومحمد شفيق اللاهوري بالإعدام، وقال القاضي في حكمه: "ستكون مسروراً وساعداً إذا رأيتكم معلقين على المشانق تلافون جزاءكم".

(1) "مسلمو الهند" للدكتور هنتر ص 158.
(2) المصدر السابق.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

الإنكليز ونساؤهم يأتون إلى السجن ليمتعوا نفوسهم ويقرؤوا عيونهم بالكابطة التي تغشى هؤلاء «الأشقياء» الذين ينتظرون المشنقة، وبيضغهم وهلعهم، ولما رأوا أنهم جذلون مسرورون ينتظرون الشهادة في سبيل الله بقلوب تواقة مؤمنة، ونفوس راضية مطمئة، كبر ذلك عليهم، وجاء الحاكم الإنجليزي وقرأ حكم المحكمة النهائية بنبض الإعدام بالنفي المؤبد إلى جزائر "إندمان" قائلاً إنه لا يجب أن يسرهم ويحقق أمنيتهم ويكرمهم بالشهادة التي يعدونها أكبر كرامة، وبهذا الطريق الغريب العاطفي الذي لم يعرف عن أمّة دستورية كالإنجليز نفي الشيخ يحيى علي العظيم آبادي، وشقيقه الشيخ أحمد الله العظيم آبادي، والشيخ عبد الرحمان الصادقبري، والشيخ محمد جعفر التهنيري، إلى "بوري إندمان" سنة 1865م ومات الشيخ يحيى علي والشيخ أحمد الله في "إندمان" ورجع الشيخ عبد الرحمان محمد جعفر بعد ثماني عشرة سنة بعد الحياة الطويلة في الجلّاء والبلاء، وصدورت أملاء أسرة صادقبر الواسعة في "بنته" عاصمة ولاية "بيهار" وهدمت مبانيها الضخمة ومشت فيها السكة، وبيعت على أنقاضها مباني البلدية ودوائر الحكومة، ونسفت مقابرهم ودرست، كل ذلك انتقاماً من الأعداء وشفاء لفيظ (1).

(1) اقرأ القصة بطولها في مقالتنا "من الشنق إلى النفّي" في...
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

وكذلك نفي إلى "إندمان" جماعة من العلماء الأجلاء كالعلامة
فضل حق الخير آبادي، والمفتي عنايت أحمد الكاكوري،
والمفتي مظهر كريم الذريابادي، ومن العلامة فضل حق في
المنفى، ورجع العالمان الآخران بعد ما مكثا مدة طويلة في الجلاء.

إن هذه المعاملة القاسية الشاذة التي استمرت مدة طويلة
كانت سبباً لتخلف المسلمين في الثقافة والعلم، ومنعتهم عن أن
ينالوا قسطهم في الإدارة ومصالح الحكومة، وقد شغلهما الدفاع
عن أنفسهم ونفي التهم التي كانت توجه إليهم بين حين وآخر,
عن المساهمة في سياسة البلاد ومجازرة الشعوب الأخرى التي
كانت تتقدم بخطى واسعة، وتنال من الحكومة كل تشجيع
وعطف في الوعي القومي والشعور الوطني.

المؤتمر الوطني

قام المؤتمر الوطني العام سنة 1884م وحضره عدد مشرف
من وجهاء المسلمين والرجال المثقفين، وقد رأس حفلته
السنوية الرابعة التي انعقدت سنة 1887م في "مدرسة الأساتذة
بدر الدين طيب جي" وحضره الوجه الفاضل "مير همايون جاه" وتبرع للمؤتمر بخمسة آلاف روبية، وحضره لفيف من الوجهاء
الأغنياء من المسلمين والمحامين والتجار.

كتاب "إذا هبت ريح الإيمان".
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

وكان زعيم الحركة التعليمية الإسلامية «س.س.أحمد خان» (مؤسس الجامعة الإسلامية في عليكر) من دعاة الاتحاد الوطني، إلا أنه بعد فترة قصيرة اتبعت سياسة الانفصال عن المؤتمر بدافع الإشفاق على المسلمين الذين كانوا لا يزالون ضعفاء في الثقافة والوعي السياسي، ومتفاوتين في الحياة والاقتصاد والتعليم، وحذر المسلمين عن الوقوع في نفوذ الهنود المتحمسين، والبنغاليين المتطرفين، الذين بدؤوا يتناقلون السياسة الإنجليزية ويطالبون بحقوقهم، وأشار عليهم بتكوين جبهة إسلامية واختلاف عن «السياسة» التي قد تثير عليهم الأحقاق القديمة وتحل المشاكل الجديدة (1).

لا شك أن هذه السياسة وهذا الأسلوب للتفكير كان خاطئاً، وكان نتيجة تأثير الدهاء الإنجليزي المستمر بيك وخلفيته المستمر موريس اللذين ظلما يقودان عقلية المسلمين وسياساتهم مدة طويلة، وقد جنى هذا الاعتزال عن السياسة على كيان المسلمين وحياتهم القومية.
الدور الذي قام به المسلمين في تحرير الهند

مجموعة فتاوى سماها "نصرة الأبرار" في تأييد المؤتمر الوطني سنة 1887 م.

كان من الموقعين عليها كبار العلماء في حواضر الهند المشهورة وفي المدينة المنورة وبغداد، ومنهم العالم الرباني الجليل مولاانا رشيد أحمد الكنكوهي والاستاذ الكبير مولاانا لطف الله العليكرى.

وحضر حفلة المؤتمر السنوية الخامسة التي انعقدت في "إله آباد" عام 1888 م بعض كبار العلماء، وهكذا ظل المسلمون يساهمون في نشاط المؤتمر، ويشاركون مواطنيهم في هذه المؤسسة الوطنية الكبيرة.

وفي سنة 1912 م نشب حرب بلقان، وانطلقت موجة عنفية من السخط العام على الحكومات الأوربية، وزعيمتها الحكومة البريطانية وحلفائها، وانفجر الوعي السياسي الإسلامي الشرقي، وصدرت صحيفة "الهلال" الأسبوعية التي كان ينشرها مولاانا أبو الكلام آزاد، وكانت تنشر مقالات تكتب بقلم من مسلاك، وتنتقد السياسة الأوربية الصليبية في قوة وبلاغة لا يعرف لها نظير، ويهتفت على قراءاتها آلاف مؤلفة من الوطنيين، وصدرت مجلة "كومريد" (Gomrade) الإنجليزية التي كان
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

ينشئها مولانا محمد علي (1) من كلكتا، ثم انتقلت إلى دهلي، وينتقد فيها السياسة الإنجليزية في أسلوب أدبي ساخر، وكذلك جريدة "زميندار" لصاحبها مولانا ظفر علي خان، وصحف إسلامية أخرى، وبذلك التهبت نار الثورة الفكرية في الهند. واعتقلت الحكومة زعماء المسلمين، محمد علي، وشوكت علي، وأبو الكلام آزاد، وحسرت موهاني.

حركة الخلافة

وكان رئيس أساتذة دار العلوم ديوبند مولانا محمود حسن (الذي اشتهر بعد بلقب "شيخ الهند") من كبار الحاقدين على الحكومة الإنجليزية، ولا نعرف أحداً بعد السلطان تيبو من يبلغ مبلغه في عداء الإنجليز والاهتمام بأمرهم، ومن كبار أنصار الدولة العثمانية التي كانت زعيمة العالم الإسلامي، وحاملة لواء الخلافة، وكان من كبار الدعاة إلى استقلال الهند، وتأسيس الحكومة الوطنية الحرة، وكان من الذين ملكتهم هذه القضية وتفاني فيها، وحاول الاتصال بحكومة أفغانستان ورجال الدولة العثمانية كأنور باشا وغيره، وقد أسرته (2) حكومة الشريف.

(1) الزعيم مولانا محمد علي زعيم حركة الخلافة دفين القدس.
(2) وأخذ فعلاً رسائل من أنور باشا في تأييد قضية الهند وكفاحها ضد الإنجليز وحث الرعايا التركية على مساعدة مولانا محمود حسن وقد دسها أصحاب الشيخ في جوف ألواح صندوق خشيبر.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

حسين سنة 1916م في المدينة المنورة، وسلمته إلى الحكومة الإنجليزية التي نفته وزملائه وتلاميذه (مولانا حسين أحمد المدني، ومولانا عزير كل، والحكيم نصرت حسين، والأستاذ وحيد أحمد) إلى جزيرة مالطا سنة 1335هـ - 1917م، مكثوا هنالك إلى سنة 1338هـ - 1920م وكان مولانا عبد الباري الفرنجي محل مؤسس جمعية العلماء من كبار المتعلمين للقضية الوطنية، ومن كبار قادة حركة الخلافة.

(Rowlatt Report)

وفي سنة 1918م صدر تقرير رولت (Rowlatt)

وهوجم فيه المسلمون بصفة خاصة مهاجمة عنيفة، واتهموا بالثورة، وكان رد الفعل عنيفاً ضد هذا التقرير في طول الهند وعرضها.

وفي سنة 1919م أطلق سراح محمد علي وشوكت علي وتجلى اتحاد المسلمين والهنود في أروع مظاهره، وانحدروا في مهاجمة الحكومة الإنجليزية وسياسة حلفائها في قضية الحكومة العثمانية، والنداء إلى تحرير الوطن وتأسيس الحكومة الاستقلالية، وأصبحت الهند كمرجع ثائر يغلي حماسة وثورة.

واشترك في هذه الحركة (التي كانت ترمي في النهاية إلى

وملاحة بقمش الحرير وأرسله إلى الهند حيث وصل إلى أصحابه، ومن هنا اشتهرت القصة بالرسائل الحريرية، وذكرها

(ROWLATT)
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

تكوين الوعي السياسي والحماس الوطني وكراءة الإنجليز
غاندي بكل نشاط وحماسة، وقام برحلات طويلة مع محمد علي وشوكت علي كان يخطب فيها الجمهور ويخطب في الحفلات الكبيرة التي لم تشهد البلاد مثلها، ولا أعتقد أنها ستشهد مثلها، وكان الجمهور يستقبل هؤلاء الزعماء بحماسة منقطعة النظير ويهتف بحياتهم.

وفي سنة 1920م اقترح غاندي وموالاه أبو الكلام آزاد - الذي كان من كبار زعماء الخلافة وحركة التحرير وأحد قادة الفكر في الهند - مقاطعة البضائع الأجنبية ومقاطعة الحكومة الإنجليزية والإضراب عن التعاون معها في دوائرها وفي جيوشها، فكان أمضى سلاح استعمل في حرب التحرير والكفاح الوطني في أي بلد حسبت له الحكومة الإنجليزية كل حساب، وكاد يشل الجهاز الإداري، وينشر الثورة العامة.

وكان كل ذلك ينذر بانتهاء الحكومة الإنجليزية، ويحرم جهاز الحكومة البريطانية في هذه البلاد البعيدة، إلا أن السياسة الإنجليزية أطلقت سهمها الأخير الذي لا يطيش عادة في البلاد الشرقية، وهو سهم التفريق والانسداد، أقنع الحاكم العام ورجال الحكومة أحد الزعماء الوطنيين الهنديك بضرورة الدعوة إلى الديانة الهندوكية، وإرجاع من دخل من أهل البلاد في الدين الإسلامي إلى ديناتهم القديمة، وتنظيم الشعب الهندوكي على
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

أساس ديني قومي حربي، فقد ظهر تفوق المسلمين وحماسهم وحسن نظامهم في حركة الخلافة والتحرير، وكانت القيادة السياسية في أيديهم، لأن القضية التي كانت تثير الجماهير قضية إسلامية تتصل بمركز الخلافة.

العاصبة الإسلامية

ومن هنا ظهرت الدعوة والتبشير بالديانة البرهمية والآرية وتنظيم الهنادك على طراز حربي، وانتشر دعاتها في الهند، وظهرت إزاء ذلك حركة الدعوة إلى الإسلام وتنظيم المسلمين على أساس مستقل، وبدأت المناظرات الدينية والخطب العاطفية والحماسية، وانفجرت الاضطرابات الطائفية في شبه القارة الهندية.

وبقي المؤتمر الوطني يعمل عمله ويعقد حفلاته، وقد رأس حفلة سنة 1925م الخصوصية في دهلي مولانا أبو الكلام آزاد والحفلة السنوية العامة في نفس السنة في «كوكنادا» مولانا محمد علي.

واستمرت الاضطرابات وعنتت حتى كانت في سنة 1927م في بضعة شهور فقط خمسة وعشرون اضطراباً، وكانت هذه الاضطرابات حديث النوادي والصحف والشغل الشاغل للبلاد، ولم يستطع زعماء المؤتمر وحركة الخلافة أن يوقفوا هذه الاضطرابات، ويرجعوا المسلمين والهنادك إلى الصفاء والثقة التي كانت تسود قبلك ذلك، ولم تزل الفجوة بين الطائفتين
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

المسلمون والهنادك - تسع وتعميق، والجفوة بينهما تقوى وتكرر، والاتجاه إلى الانفصال في الزعماء يزداد قوة حتى أصبح واقعًا عملياً.

وبدأ الناس يشعرون بخمود الحماسة الوطنية أو بضعفها في الزعماء الوطنيين وانحيازهم إلى المعسكرات الطائفية وخصوصهم للمعاطف الدينية والعرارات الطائفية، وبدأ الزعماء الوطنيين المسلمين يشعرون بأن الزعماء الوطنيين الهنادك - وعلى رأسهم الزعيم غاندي - لم يستعملوا كل نحوذهم في وقف هذه الاضطرابات الطائفية وفي محاسبة شعبهم وأصحاب ديانتهم الذين يكونون الأكثرية في البلاد فيما يصدر منهم من الاعتداء والسيب وإن لم يكون من هؤلاء الزعماء من الحياء التام والمساواة بين الطائفتين ما كان ينتظر من زعيم وطني عام.

وسواء كان هذا الشعور صحيحاً أو كان فيه شيء من التشاؤم وسوء التفاهم، فقد جعل هذا الشعور يضعف نشاط بعض الزعماء الوطنيين المسلمين - الذين كانوا مشعل الحماسة الوطنية، وكانت لهم مواقف خالدة في الدفاع عن الوطن والكفاح ضد الإنجليز، كمولاانا محمد علي - في تأييد المؤتمر، وجعلهم ينظرون إلى المسلمين كأمتهم التي يأوون إليها، ويشكون من زعماء المؤتمر ضيق التفكير، وضيق الصدور فيما يتصل بالمسلمين.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

وهكذا انفصل مولانا محمد علي وكثير من زملائه عن المؤتمر وانضموا إلى الجبهة الإسلامية، وقويت حركة الانفصال التي كان يتزعمها محمد علي جناح رئيس العصبة الإسلامية الإسلامي وحماسه، حتى نادى في الأخير بتقسيم الهند، ونجحت بفضل عقلية الأكثرية الضيقة وشذوذ معاملتها وتفكيرها مع المسلمين

جمعية العلماء

وبقى مولانا آزاد، وكثير من العلماء الذين كانوا ينتسبون إلى جمعية العلماء»، أوفياء للمؤتمر ثابتين على موقفهم القديم ووجهة نظريهما، وعلى رأسهم وفي مقدمةهم العالم الجليل المجاهد مولانا حسين أحمد المدني، وهو خليفة شيخه مولانا محمود حسن في البناء الشديد للإنجليز والحماس للقضية الوطنية والخلاص لها والتفاني في سبيلها، وقد تحمل هو وزملاؤه» أعضاء جمعية العلماء كل سخط وإهانة من العنصر

(1) جاء في خطبة مولانا أبي الكلام التاريخية الخالدة التي ألقاها في البرلمان الهندي وقد أشار إلى بعض أعضاء البرلمان الهندي الذين اعترضوا على مساعدة وزارة المعارف للمؤسسة العلمية المشهورة «دار المصنفين» في أعظم كره لأنها تنسب إلى المسلمين «إن هذه العقول الصغيرة هي التي كانت سببا في تقسم الهند».

(2) نذكر منهم بصفة خاصة المفتى الأكبر مولانا كفاية الله، ومولانا
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

الإسلامي المتحمس المندفع تحت قيادة العصبة الإسلامية وكان مركز نشاط عظيم، ودوامًا لا تكسن ولا تهدأ، مع النزاهة التامة وصرامة لا ضعف فيها، ودين لا مغز فيه.

كان إخلاصه غير منازع فيه، يقره صديقه ومعارضه، فلا نالت الهند الاستقلال، وكانت الفرصة مواتية لجني ثمار الحرية، والانتفاع من الحكومة المحلية، وتهافت الناس عليها، كانت شخصيته الوحيدة هي التي أبت قبول أي نفع أو كسب، فلما أعلن رئيس جمهورية الهند في عام 1952م إكرامه بوسام «بدم وبهوشن» الفخري، رفضه الشيخ قائلاً: إنه يتنافى مع طريق السلف، واعتذر، ولا شك أن الأماني والتطلعات العالية التي كان يعقدها بحرية الهند لم تتحقق كلياً، وأنه مر في عهد الحرية بتجارب قاسية حطمت قلبه، وخيبت آماله، لكنه ظل صامداً متصلاً في مبادئه ونظرياته ومذهبه بعد الحرية؛ كما كان صامداً متصلاً في ساعات العصر، أيام العبودية والاستعمار.

وكان مولانا أبو الكلام آزاد رئيس المؤتمر الوطني لأطول مدة تمت بها رئيس، وفي أحرق فترة مرت بها البلاد، وفي عهد

محمد سجاد البهاري، ومولانا حفظ الرحمن الأمين العام للجمعية وعضو البرلمان الهندي.
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند

200

رئاسته زارت البعثتان الحكوميتان لحل القضية الهندية والمفاوضة في شروط الاستقلال وتفاصله، فكان مولانا أبو الكلام بصفته رئيساً للمؤتمر الوطني الهندي ممثلاً للمؤتمر الوطني ولسان حاله، وقد اعترف أعضاء البعثات وعلى رأسهم السياسي الإنجليزي Sir Stafford Gripps وحذفته السياسية والفطنة للدقائق الدستورية.

وفي عهد رئاسته وتحت إشرافه وتوجيهه نالت الهند الاستقلال، ويدل كتابه "الهند تنال الاستقلال" Freedom الاستقلال، على أنه كان العقل المفكر الوجه في جهاز المؤتمر الوطني، وكان يسيطر على زملائه وعلى الجهاز الإداري وسياسة البلاد بعقله الابداع، ونظره البعيدة، وشخصيته القوية، وله في حركة استقلال الهند والكفاح الوطني أوفر نصيب يمكن أن يكون لزعيم وطني.

* * *
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

لكل شعب مشكلات تمتحن جدارته للبقاء وتشغل مواهبه وتثير كرامته وتبعث فيه النشاط واليقظة، وكل شعب لا مشكلة له لا يصلح للاعتماد والثقة، ومعنىً لخطر الخمود والاستنامة والإخلال إلى الراحة.

وللشعب الإسلامي الهندي مشكلات يعانيها اليوم ويحاول حلها والتغلب عليها، كان بعضها نتيجة أخطائه، وبعضها نتيجة رواسب الماضي ومخلفاته الفكرية والسياسية، وبعضها نتيجة وضع الأحوال والحوادث التي مرت بها الهند في العهد الماضي، ولا شك أن جميع هذه المشكلات عارضة طارئة، ستنتحل إذا أثبت الشعب الإسلامي صبره واحتماله، وعالج الأمور بحكمة وأنتظار ورفق، وقدرت له القيادة الرشيدة المتزنة الجريئة، ونذكر هنا أهم مشكلاته.

الدعوـة الإسلامية

إن المشكلة الكبرى من هذه المشكلات هي مشكلة الدعوة
الإسلامية، يعرف الجميع أن الإسلام دين دعوة وهداية عامة، وكان انتشار الإسلام وازدهاره عن طريق الدعوة والهداية، والعدد الذي دخل في الإسلام في الهند بفضل الدعاة المخلصين من الصوفية والمشآيخ والتجار والربانيين أكثر جداً، من عدد المسلمين الذين نزحوا إلى الهند من الأقطار الإسلامية العريقة في الإسلام كجزء من العرب وإيران وتركستان، ولم تزل الدعوة الإسلامية المخلصة تضيف إلى الجسم الإسلامي دماً جديداً قوياً في كل عصر، وتمتع المجتمع الإسلامي في الهند مهتمين جدداً أثبتوا نبوغهم وعبقريتهم فيما بعد، ولم تزل أسر عريقة في الشرف والأصالة معروفة بالذكاء والنجابة تنتقل وتتضم إلى الأسرة الإسلامية الكبيرة، وفي أعلام الشعب الإسلامي الهندي ورجالاته من ينتمي بنسب قريب أو بعيد إلى أسرة هندوكية، ومن هؤلاء في الماضي القريب مولانا عبيد الله البتيالوي صاحب "تحفة الهند"، مولانا عبيد الله السندي، والعلامة محمد إقبال، والشيخ ثناء الله الامير تسري، ومولانا أحمد علي اللاهوري، ومولانا معين الدين الأجميري، وكلهم علماء أجلاء ودعاة ومصلحون، وقليل من المسلمين يعرفون أنهم من أسر دخلت في الإسلام، أو كان عدد منهم من شرح الله صدره للإسلام فأسلم بنفسه.

وكانت الدعوة الإسلامية والهداية الإسلامية تعملان عملهما
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

وتشقان طريقهما إلى الأمام في العهد الإسلامي الأخير، وإلى آخر
عهد الحكومة الإنجليزية، وكان عدد كبير من غير المسلمين
يدخل في الإسلام طوعاً كل سنة لما يمتاز به الدين الإسلامي من
المبادئ الحكيمة المعقوبة، وجود عقيدة التوحيد النية
والعدل والمساوية، وعدم وجود طبقات متفاوتة والمس
منبزوذ، وكان القرآن والسيرة النبوية وتعاليم الإسلام تفتح قلوب
جديدة وتبت عقولاً جديدة، وكان من الممكن المتوقع أن يصبح
الإسلام - لو جرت الأمور مجريها الطبيعي - أعظم قوة في القارة
الهندية، ثم أعظم قوة في آسيا.

ونشطت المعركة السياسية بين المسلمين ومواطنيهم،
وحميت في الأيام الأخيرة، وتوترت منها قلوب الطائفتين،
وامتلأت ضغناً وحقداً وشكاً، واتسمت شقة الخلاف، وكان من
نتيجتها انقسام الطائفتين وانقسام الهند وقيام دولتين مستقلتين
إحداهما الجمهورية الهندية والأخرى الجمهورية الإسلامية
الباكستانية، ولستا الآن بчисد الحكم على هذا الوضع، هل كان
من الممكن التفادي عما وقع؟ هل كان هنالك طريق أفضل؟
وهل كان عملياً أم لا؟ هذا كله تتركه للمؤرخ السياسي، والذي
يكتب تاريخ الهند بحرية وتفصيل وإنصاف، ولكن الذي يهمنا
الآن هو أن هذا الوضع السياسي الذي جرت إليه الأحوال
والظروف أو لجأت إليه الهند طائعة أو مكرهة، خلف مرارة في
القلوب وشكاً في قلب كل طائفة للأخرى، وزهداً وانصرافًا عن كل ما تنضم به تلك الطائفة من دين وعقيدة وثقافة وحضارة، بل وكراهنا لما تبنيته وتزعمه بطبيعة الحال، وكان ذلك حاجزاً كبيراً في سبيل انتشار الإسلام في الهند، لأنه دين الدولة المنافسة القائمة لها بالمرصاد ودين شعب قامته بيته وبين الشعب الهندي معارك سياسية وحروب طائفية ومناوشات كلامية، فيبعث ارتفاع عدد المسلمين نسبياً بالمواليد، أو بدخول أفراد الطبقات المتشكلة المضلعة في الإسلام قلقاً وخوفاً في أوساط الأغلبية، فيفكر بعض الزعماء في قمع نشاطات الدعوة وتحديد النسل.

أضاف إلى ذلك أن الدول التي تسمى بالإسلام والمجتمع الذي يدين بالإسلام على الحدود لا يمثلان مع الأس في الأخلاق والسياسة ما يزيد ثقتهم بالإسلام ويبين على إجلاله وإكراره، وزيادة على ذلك أن الأحوال السياسية والاقتصادية في باكستان تبرهن بعض الأحيان عند المتشككين على إخفاق دولة تنتمي وتقوم على أساسه، وقد يقرأ الإنسان في صحيفة أو يفاجأ ما يباعد عن الإسلام يقوم حجاب دون فهم حقيقته ومدى تأثيره في النفس.

هذه هي مشكلة المشكلات في الهند، ولا شك أن امتداد الأيام وتحسين العلاقة بين باكستان والهند وتغلب العقل على
العاطفة سيحل هذه المشكلة، ويبدأ الإسلام سيره ونشاطه من جديد إذا قام المسلمون بدعوة إسلامية رقيقة خالصة مخلصة، لا تشوبها السياسة والطموح والكبرياء، دعوة لا تقصد إلا هدابة الناس وإسعاد النفوس وخدمة الخلق والناصح الخالص، والإفطار على مصير بني آدم، وتحفظهم من مهالك الدنيا والآخرة، ووفق المسلمون لإخراج كتب في شرح تعاليم الإسلام وعرض السيرة النبوية واللغة الهندية واللغات الإقليمية في أرقى أسلوب عصري وشكل جذاب، وتغلغلوا في المجتمع الهندي بدعوتهم، وأثبتوا تفوقهم الروحي والخلاقي وإخلاصهم ووفاءهم لبلادهم وحرصهم على تقدمها ورفاهيتها.

الأحوال الشخصية:

وهي المشكلة الثانية التي تلقي المشكلة الأولى، وقد تفوقها في الخطرة والنتائج، لأن المشكلة الأولى إنما تقف سداً في سبيل انتشار الإسلام وتوسعه، حين كانت المشكلة الثانية تهدد وجود الشعب المسلم بإسلاميته وثقافته ومعتقداته.

فقد كانت الأحوال الشخصية الإسلامية التي تشتمل على مسائل الطلاق والزواج والإرث ومسائل دينية أخرى بعيدة عن متناول القانون المدني، وكان يقضي فيها في ضوء الفقه الإسلامي رغم أن أصواتاً كانت ترفع من حين لحين بدمج هذه المسائل إلى القانون المدني الموحد، لكن الحكومة الهندية لم
تتخذ إجراء لتغيير قانون الأحوال الشخصية الإسلامية، وأكدت للمسلمين بأنها سوف لا تغيره ما لم يطلب من المسلمين أنفسهم.

وقد تفاقم الوضع إثر صدور حكم من المحكمة العليا المركزية في قضية شاه بانو، محمد أحمد، التي قضت المحكمة العليا فيها بمنح المرأة المسلمة المطلقة النفقة من زوجها المطلق إلى أن تموت أو تنكح زوجاً غيره تطبيقاً لمادة 125 من قانون الجرائم الهندية الذي لا يفرق بين المطلقة والزوجة الشرعية في النفقة، وادعت المحكمة أن هذا القانون لا يتناغي مع حكم القرآن الكريم تفسيراً خاطئاً لكلمة "المتاع" التي وردت في القرآن، وتجاوزت المحكمة العليا إلى الاقتراح بتعديل الأحوال الشخصية الإسلامية استناداً إلى بند 44 في الدستور الهندي الذي يقضي لفرض قانون مدنى موحد ينطبق على جميع طبقات الشعب كلياً، وقد كانت الحكومة الهندية تؤكد كلما احتج المسلمون على المحاولة لتعديل الأحوال الشخصية وفرض قانون موحد أن قانون الأحوال الشخصية سيبقى على حاله ما لم يطلب المسلمون أنفسهم بتغييره، وفي الوقت نفسه كانت الجهات الرسمية والطوارئ المعادية للإسلام تتصيد رجالاً منعزلين من التيار الإسلامي ليتقدموا بالمطالبة بتعديل
الأخلاقيات الشخصية ، ولكن خيب المسلمين دائماً كل هذه المحاولات باحتجاجهم.

إن بقاء قانون الأخلاقيات الشخصية هو الضمان الوحيد لتمسك المسلمين بصبغتهم الدينية ، فإن التعليم الجديد والثقافة القومية قد قضت على كثير من خصائصهم ، فإن الاطلاق والنكاح ، والإرث والأمور الأخرى المنصوص عليها في القرآن والسنة ، والتي تفصل بين المسلم وغيره ، إذا غيرت وأخذت للقانون المدني العلماني ، فقد المسلم كل ما يميزه عن غيره ، ثم تأتي العبادات وطرقها والعقائد ، وتبذل محاولة لإخضاع كل ركن من أركان الإسلام للطبيع القومي ، ثم تأتي مسألة الأسماء الموحدة ، يفقد المسلمون شخصيتهم كما فقدوا في بعض البلدان الشيوعية.

ولو أن الحكومة الهندية المركزية تؤكد عدم التدخل في تأدية الشعائر الدينية ، ولكن لقلق المسلمين مبررات ، فإن جهات معينة تنتهي إلى التطرف الهندي ركي لا تخفي هوايها في تهذيب المسلمين كلياً ، وترتفع هذه الأصوات في اجتماعات وبيانات صحفيه ، ومن هذا القبيل حركة استعادة المساجد القديمة وتحويلها إلى معابد بدعو أنها كانت معابد حولها المسلمون في عهد الحكم الإسلامي إلى مساجد ، ولا تتخذ الحكومة إجراء صارماً ضد مثل هذه المطالب ما يقنع المسلمين على أنها لا تؤيد...
هذه الحركة، وتضع السلطات التنفيذية قيودًا على بناء مساجد جديدة.

وقد جاء حكم المحكمة العليا هذه المخاوف، فوقف المسلمون صفاً واحداً للاحتجاج ضد هذا الحكم، واقتراح المحكمة العليا، وطالبوا بتعديل في الدستور، واستثناء الأحوال الشخصية الإسلامية بصراحة ووضوح، وسن قانون لإبطال قرار المحكمة العليا، وسد كل باب ومنفذ للتوغل في الأحوال الشخصية، وأن تبقى التعليم الدينية المنصوص عليها والشعائر الدينية في نجوة من تطبيق القانون الوضعي، ومن تعسف تأويل القانونين.

وسبق أن قد ألف للحفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعُموم الهند في عام 1972م وكان رئيسها الأول الشيخ محمد طيب رئيس دار العلوم ديوبند سابقاً، ورئيسه الحالي مؤلف هذا الكتاب، ولهذا المجلس دور ملحوظ في مواجهة المحاولات لتغيير الأحوال الشخصية ومقاومة القوانين التي تتعارض مع التعليم الإسلامي كقانون الأوقاف، وقانون التبني، ونفقة المطلقة.

وبعد وفاة الشيخ محمد طيب انتخبت لرئاسة هذا المجلس، وفي هذا العهد ثارت المشكلة، وبعد محادثات شخصية مع رئيس الوزراء، وتقديم مذكرات احتجاج من سائر أنحاء الهند، التي اتخذت في اجتماعات حاشدة أعرب المسلمون فيها عن
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

استعدادهم لتقديم أي تضحية في هذا السبيل رضخت الحكومة لمطالب المسلمين، واتخذت مشروع القانون الخاص بحقوق المرأة رغم معارضة الأغلبية في البلاد التي شنت حملة ضد أي تعديل في الدستور.

وقد هدأت هذه العاصفة باتخاذ التعديل، ولكن لا تزال ترتفع أصوات بفرض قانون موحد للأحوال الشخصية، ويواصل المسلمون مكافحة تمكين مثل هذه المطالبة.

التعليم والترفية

المشكلة الثالثة هي مشكلة التعليم، كان دستور الجمهورية الهندية العلماني يكفل حرية العقيدة والدينية والثقافة لكل عنصر من عناصر القومية الهندية، ويساوي بين العناصر المختلفة والطوائف الهندية، وهو أفضل دستور لقطر يسكنه شعوب كثيرة ذات ديانات كثيرة وحضارات وثقافات متنوعة، وكان أفضل نظام من نظم المعارف في مثل هذه البلاد نظام لا يتبني ديانة خاصة وعقيدة خاصة، فإنما أن يجمع بين تعاليم أديان مختلفة وينظر إليها بعين واحدة، وهذا يصعب تطبيقه في قطر مثل الهند غني بالديانات والحضارات، وإما يعتزل جميع هذه الديانات والعقائد ولا يتناولها بالعرض ولا يتعرض لها نفيًا ولا إيجابًا، ويبقى مقصورًا على الثقافة العامة، والمعلومات المدنية وما يحتاج إليه الطالب في حياته من مواد دراسية.
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

وقد كان المشرعون وواضعو الدستور الهندي عقلاء بعيدي النظر إذ فضّلوا القسم الثاني، وذلك كان الوضع السائد والخطة المتبعة في العهد الإنجليزي، هذا ما لا يقبل مناقشة ولا يثير اعتراضًا، وكان المسلمون مسرورين إذا كان هو الوضع التعليمي في الجمهورية الهندية ووايتها المختلفة.

ولكن من المؤسف المقلق أن هذا لم يتجاوز صفحات الدستور والبلاغات الرسمية، فقد تبنى وواضع المناهج الدراسية ومؤلفو الكتب المقررة للتدريس في ولايات الجمهورية خصوصاً في الولاية الشمالية، ديانة الأكثرة وعقيدتها بعرض شعائرها وألاتها ومقدساتها وأساطيرها الدينية مما يتنافى مع تعاليم الإسلام، ويبذل عقيدة التوحيد البسيطة، وما جاء في القرآن من وصف الله تعالى بصفات العظمة والجلالة والقدرة والكمال والتفرد وال تعالى عن المثال وعدم الحصول والاتحاد، وينافي عقيدة الرسالة والثورة الإسلامية، ويدعو إلى تقديس هذه الآلهة الأسطورية وعبادتها، وتقديس بعض الأنهار والمدن وتأليهمها، ويصور الهند - البلاد التي تسكنها الطوائف الكثيرة - كبلد ليس فيه ديانة غير الديانة البرهمية ومعابدها واحتفالاتها وأعيادها وتقاليدها ومراكزها الدينية والروحية.

والكتب التي قررت للمطالعة ليطلع التلاميذ على تاريخهم الماضي، ويتعرفوا بالشخصيات الكبيرة قد اقتصرت على
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

شخصيات شعب خاص وديانة خاصة، وأعرضا مؤلفوها- في تصميم وتفكير- عن الحديث عن أي شخصية كبيرة من شخصيات العهد الإسلامي الزاهر سواء كانت من عباد الله الصالحين، أو من الملوك العادلين، أو المشرعين النابغين، أو الإداريين الحازمين، أو العلماء العباقرين، أو الشعراء المفلكين، مع أنها من مفاخر الهند ومن أعلامها التي يتباهى بها الهنديون على اختلاف دياناتهم يتجمل بها تاريخ الهند العام، وفيها أسوة وحافز للتلاميذ الصغار والشباب الناهضين، وعاملوا العهد الإسلامي ومن نبغ فيه من الرجال وأصحاب الفكر والكمال معاملة الأجانب ومعاملة الغرباء، وإذا ذكروا بعضهم لم يحسنوا تصويرهم، أو نسبوا إليهم ما يحظر من شأنهم، بل وربما نسبوا إلى الرسول الأعظم من الأخلاق والأعمال والحوادث ما لا يليق بإنسان شريف فضلاً عن الرسول، ويجرح شعور كل مسلم وشيمه.

إن وجود مثل هذه الكتب المقررة في نظام تعليمي إجباري تفرض دراستها على أولاد المسلمين وشبابهم حين لا يتلقون تعليمهم وثقافتهم عن مصدر آخر، وتمسك مئات آلاف من المدارس في المدن والقرى والأرياف، وضع محرج للمسلمين يبعث فيهم القلق الشديد والإشراق على مستقبلهم الديني وعقيدتهم أجيالهم، ويهدد كيانهم الملي في هذه البلاد التي يعتروها وطناً لهم، وقد صممو على الإقامة والبقاء فيها وخدمتها بكتفاهاتهم.
ومواهبهم والمساهمة في نشاطها، ويجعلهم يخافون على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم من الردة الفكرية والثقافية، ومن الردة الدينية ومن الوثنية، وقد بدت طلائع هذه الردة في الأوساط التي أثر فيها هذا التعليم وانقطعت صلتها عن مصدر ثقافي أو عن الدعوة الإسلامية، وبدأ الصغر السدج من أبناء المسلمين يتظاهرون بالشعائر البرهمية ويدينون بعض عقيدتها.

مجلس التعليم الديني

إنه مبعث قلق عظيم وإشراق وحذر في أوساط المسلمين وفي المجتمع الإسلامي؛ فلذلك انعقد مؤتمر عظيم في إحدى مديريات الولاية الشمالية (بستي) حضره عدد كبير من المسلمين من كل مذهب ومدرسة فكرية، وثلاثمئة ممثل ومندوب من مختلف الطبقات، وطلعوا من الحكومة أن تصلح برامج التعليم الرسمي وتسحب هذه الدروس التي تنافى العقيدة الإسلامية وتقوم على أساس ديانة خاصة وفكرتها وأساطيرها، وتحافظ على علمانية المعارف كما يقررها الدستور، وعزموا على إنشاء كتب ومدارس تعلم أطفال المسلمين التعليم الديني في أوقات الفراغ، وإنشاء مدارس تعلم المناهج الدراسية المقبولة في المعارف مع مادة الديانة وإضافة دروس تعليم الإسلام، وقد كان لهذا المؤتمر تأثير كبير في الوسط الإسلامي، وانبعث فروعه في أنحاء الولاية، وانعقدت مؤتمرات عظيمة، وكانت الفكرة التي يلتقي عليها
المسلمون وأفراد الأقلية على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم.
ولجمعية العلماء أيضاً نشاط في حقل نشر التعليم الإسلامي
وتأسيس الكتاتيب والمدارس في المدن والقرى.
مشكلة اللغة الأردية

المشكلة الرابعة هي المشكلة اللغوية، نشأت لغة أردو
باختلاط العناصر المختلفة والأجناس المختلفة من أهل الهند.
وكانا مزيج الثقافات المختلفة ووليدة اللغات الأربعة القديمة:
السنندرية، العربية، الفارسية، والتركية، واقتبست في
العهد الأخير من اللغة الإنجليزية مفردات كانت جارية على ألسنة
العامة، وأصبحت هكذا لغة تمثل القومية الهندية خير تمثل،
وأصبحت لغة الجمهور ولغة الثقافة والعلوم والآداب الرفيعة،
والصحافة والسياسة، وأصبحت آداة التفاهم بين الولايات
الهندية والمناطق المختلفة التي لكل منها لغة محلية خاصة،
ويتكلم بها عامة الجمهور في الولايات الشمالية وفي ولاية "بئار
وفي دلهي وما جاورها من المدن وفي ولاية حيدر آباد"، وهي
اللغة الوحيدة التي يفهمها أكثر أهل الهند في كل منطقة وولاية،
ويصدر فيها صحف ومجلات تلي الصحف الإنجليزية السيارة في
عدد قرائها والمشركون فيها.

كانت "أردو" هي اللغة الرسمية (الثانية بعد الإنجليزية) التي
تستعمل في المحاكم والإدارات والمدارس حتى اقتضت سياسة
الإنجليز في عهد حاكم الولاية الشمالية (Macdonalde) انهم يشجعوا اللغة الهندية، وحدثوا تنافاً بين اللغتين الشقيقتين، ويبذرو بذرة العداء بين الطائفتين، فقرر الحاكم المذكور في 18 من أبريل عام 1900 م قبول اللغة الهندية، واستعمالها في المحاكم، فمن ذلك الحين برزت إلى الميدان، واستقلت الهند وانقسمت سنة 1947 م وقرر دستور الجمهورية الهندية كما تقول مادة (43) إن اللغة الجمهوروية الرسمية هي الهندية في الحروف السنسكريتية(1) وقرر الدستور أربعة عشرة لغة هي لغات المناطق كلغات الهند المعترف بها دستورياً، وفيها أردو، وقرر الدستور أن كل لغة يتكلم بها عدد يعتد به يعرف بها ويمنح أهلها كل تسهيلات لتعليمها لأبنائهم إذا طلبوا ذلك، واقتنت رئيس الجمهورية بوجود هذا العدد ورغبته في أن هذه اللغة أداة التعليم لأبنائه فتقول مادة (47):

"إذا رغب عدد وجي من أهل ولاية في أن يستعمل لغة يتكلم بها، وطلب أن تعترف بها حكومة الولاية، واقتنت رئيس الجمهورية بأن من يطلب ذلك يشكل عدداً لا يستهان به، فإن رئيس أن يصدر أمرًا بالاعتراف بهذه اللغة رسمياً واستعمالها للمقاصد التي يصرح بها الرئيس".

(1) كتابة خاصة في حروف خاصة تكتب من الشمال إلى اليمين كاللاتينية.
ولكن الولايات التابعة للمركز، وخاصة الولاية الشمالية التي كانت تعتبر مركزاً للغة أردوا فيها تهدأ وألفت لغة أردو كمادة دراسية وكأداة التعليم في المرحلة الإعدادية والتحضيرية، وقررت اللغة الهندية لغة إجبارية وأداة التعليم الوحيدة التي يتقلى فيها التلاميذ المواد الدراسية وإن كانت لغتهم التي يتكلمون بها ويتكلم بها آباؤهم هي لغة أردو، وطبقت وزارة المعارف في ولاية (بوبي) هذا القرار بدقه وشدة، ومنعت دراسة لغة أردو في مدارسها الابتدائية قاطعاً، وهكذا أقصيت لغة أردو من المدارس الابتدائية إفشاء تاماً.

إن إلغاء لغة أردو كمادة دراسية في المدارس وكأداة التعليم كان مؤثراً في ثقافة جميع العناصر والطوائف التي تتكلم بها وفي مستقبلها المنوط باللغة، ولذلك أثار موقف الحكومة المعادي إزاء هذه اللغة سخطها واعتراضها، ولكن تأثيرها في ثقافة المسلمين ومستقبلهم كان أعظم وأعمق.

وكان هذا التأثير يتجاوز الثقافة إلى العقيدة والمستقبل الديني، لأن أردو هي الوسيلة الوحيدة التي تربطهم بالثقافة الإسلامية فيها المكتبة الدينية وحروفها عربية، فتسهل بها قراءة القرآن ودراسة اللغة العربية لمن يرغب في هذه الدراسة، وفيها آدابهم وحضارتهم، وتاريخهم، ومعنى انقطاعهم عن هذه اللغة وجعلها، الانقطاع عن ثقافتهم وحاضريهم، فاعتبروا بحق إلغاء
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

هذه اللغة في المدارس قضاء على قوميتهم وثقافتهم وخصائصهم وكياناتهم، فاحتجوا ضد هذا الموقف الذي تقفه الحكومة نحو هذه اللغة المعترف بها رسمياً، الواسعة الانتشار، الحية السائدة التي يتكلم بها ملايين من أهل البلاد، فأصدرت الحكومة المركزية قرارات يقول:

"ينبغي أن تكون اللغة التي يتكلم بها الطفل والتي هي لغة أبوه أداة التعليم والامتحان في مدرسته، وإذا كانت لغة الطفل تختلف عن لغة المنطقة واللغة الرسمية ويرغب عدد من التلاميذ لا يقل عن أربعين في المدرسة وعن عشرة في الصف فلا بد من تعيين معلم لتعليم المواد الدراسية في هذه اللغة".

وعلى هذا الأساس قدم المسلمون الذين يتكلمون لغة أردو طلباً بتوفير التسهيلات لتعليم أطفالهم لغة أردو وتعيين أستاذ لذلك في مواضيع كثيرة، ففي لکهنو وحدها قدم أولئك التلاميذ طلباً بذلك عليه توقعات عشرة آلاف من الآباء يطلبون من وزير المعارف تهيئة الأسباب لتعليم أردو وتعيين الأساتذة لهذه المادة في المدارس الابتدائية التي يتعلم فيها أبناءهم وهم حريصون على تعلم أردو، ولكن كل ذلك لم ينفع، ولم يتغير موقف الحكومة، وبقيت لغة أردو ملغاة خارجة عن المناهج الدراسية المتبعة في هذه الولايات، وكلما تقدم طالب إلى مدير مدرسة يطلب تعيين أستاذ لتدريس أردو وتقرير دراستها اعتذر المدير بأن
عدد الراغبين في ذلك لا يبلغ العدد المعني في القرار الرسمي مع أنهم يتجاوزون هذا العدد في المجموع.

وبعد كل هذه الاحتجاجات والمحاولات لم ير الناطقون بأردو والمختصون لها حيلة غير أن يلجؤوا إلى مادة الدستور رقم (347) التي تمنح رئيس الجمهورية إصدار أمر بالاعتراف بلغة يتكلمو بها عدد ويجع من أهل البلاد واستعمالها للمقاصد التي يصرح بها الرئيس، فبدؤوا يجمعون توقيعات الأفراد الذين كانوا يتكلمون بأردو ورغبون في أن يدرسها أبناؤهم، وكانت حملة ثقافية منظمة تحت إشراف جمعية ترقة أردو (أُنجم ترقي أردو) شملت مديريات الولاية الشمالية، وتأسست لها فروع ومراكز في هذه المديريات والمناطق، وكانت مع ذلك حملة هادئة تعتمد على الوسائل الأدبية وحدها ولم تستعن بوسائل العنف والتهريج والإرهاب، ولا بالأساليب السياسية، ونجحت هذه الحملة فوقع مليونان وخمسون ألفاً من الرجال البالغين وآلاف من مليونين من غير البالغين يطلبون أن يعترف بأردو كلغة المناطق في الولايات الشمالية، وأن يسمح بأن تكون أداة التعليم للأطفال الذين يتكلمون بها، وأن يطبق قرار الحكومة المركزية لتعيين أستاذ للتعليم في أردو إذا بلغ عدد التلاميذ الراغبين في ذلك العدد المطلوب المعني في القرار.

وتشكل لهذا الغرض وفد ووجه يشتمل على كبار رجال الثقافة...
من المسلمين والهنود يزور رئيس الجمهورية الهندية يقدم هذا الطلب الذي يشمل على أكثر من مليون من التوقيعات، وله Ober طلب يتحلى بتوقيعات أكبر عدد من الجمهور يقدم إلى رئيس حكومته، وكان رئيس هذا الوفد الدكتور ذاكر حسين من رجال الثقافة العالميين ومدير جامعة عليكره سابقاً ورئيس الجمهورية الهندية أخيراً، وقد زار هذا الوفد رئيس الجمهورية في دلهي الجديدة، وطلب زيادة على الاعتراف بلغة أردو واستعمالها في المدارس قبول الطلبات التي تكتب في لغة أردو في محاكم الولاية الشمالية وإداراتها، وإصدار البلاغات والمطبوعات الرسمية في أردو كذلك، وتشجيعها وإعطاء الجوائز لمؤلفيها، وأن تحتضنها المجامع العلمية الرسمية، كما كان الوضع في السابق، وأن تعد أردو إلى اعتبارها ومكانتها السابقة في دوائر الحكومة، وتكون هذا الوفد بانتي عشر عضواً نصفهم من كبار المثقفين الهنود.

وقد قابل رئيس الجمهورية هذا الوفد الموفر وأصحابه أبدي عنايته لقضيتهم وعطته عليها، ولكن لم يغير الوضع ولم يحدث شيء جديد قيصر إليه أصحاب قضية أردو المشفقات على مستقبلها، وظلت ولا تزال هذه اللغة مفتوحة مطاردة في وزارة المعارف وفي المدارس الرسمية، ولا يزال أبناء الطوائف والعناصر التي تتكلمها محرومين ممنوعين من دراستها في المراحل الابتدائية، وبذلك يزدادون بعدها عن ثقافتها.
ويستجيبون على جهالها، حتى انقطاعت صلتهم عن ثقافتهم القديمة وعمن مضيهم وعن عقائدهم وشريعتهم التي يدينون بها، حتى بدأ يظهر جيل جديد لا صلة بينه وبين الأجيال القديمة، ينشأ بعيداً عن محيطه الديني والثقافي ويصعب عليه الاتصال به إن حاول ذلك، فقد انهدمت القنطرة التي يعبر عنها إلى ثقافته وانقطاع الخيط الذي يربطه بماضيه وأسلافه، مشكلة معقدة طريفة يقابلها المعلمون في بلادهم الأم ومهدهم، ونذير بين يدي خطر شديد ومستقبل رهيب، ولا شك أن الوعي السياسي والقومي سيحل هذه المشكلة ويطبق الدستور بأمانة، ويتخلص المسلمون والطوائف الأخرى عن هذه الأزمة التي كانوا في غنى عنها، وكانت البلاد في حاجة إلى ثقة تسود ونشاط يعم وتعاون يشمل، ولا يكون ذلك إلا إذا اطمئن كل عنصر من عناصر الجمهورية الهندية إلى مستقبله الثقافي والديني، وجرب أنه ليس في الهند الحرة الديمقراطية استعمار ثقافي، وليس للغة وإن كانت لغة الأكثرية أو لغة الهند الرسمية آن تنشأ وتسود على حساب اللغات الهندية الأخرى، وأن تبتلعها وتقوم على أنقاضها، فقد كانت حرب التحرير والكفاح الوطني الموحد على أساس ضمان الحقوق وكفالة الحريات الدينية والثقافية، وقد شارك فيها كل عنصر وهو يؤمن بأنه سينال بعد الاستقلال الحكم الذاتي حرية العقيدة والثقافة، ومحيطًا تتحقق فيه أمانية
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

وتطامجه تحقيقاً لم يكن إليه سبيل في عهد الاستعمار والعرودية،
ويعيش كل عزت مقدس من عقيدة وحضارة وثقافة وآداب.

الأمن الطائفي

المشكلة الخامسه هي مشكلة الأمن والسلامة لحدود
اضطرابات طائفية في المناسبات والأعيان والاجتماعات العامة،
أو لدى حدوث أي نزاع أو خلاف بين فريقين أو أحدهما مسلم
والآخر غير مسلم، فيتطور هذا النزاع إلى صراع طائفي، وكثيراً
ما يتطور نزاع عادي يحدث في أي مجتمع، أو شجار لخلاف أو
سوء تفاهم، أو انفعال شخص من طائفة ضد فرد آخر من طائفة
أخرى، إلى اشتباكات تستخدم فيها القوة والأسلحة وآلات
الإحرق، والإبادة، وتسلك الدماء، وتنتشر حوادث القتل
والإحرق والنهب والسلب إلى مناطق مجاورة، ويستغرق
الوضع مدة طويلة للتهديد الأعصاب، وعودة الحالة إلى
طبيعتها، لأن الشائعات والشبهات تشيع وتعكر الصفو،
ويتعرض المسلمون لموقف غير محايد من أجهزة الأمن التي
تمثل إلى الأغلبية التي تنتمي إليها، فلا تنفذ إجراءات صارمة
ضد المشاغبين، كذلك تلعب الصحافة القومية دوراً حاسماً في
تغطية الأحداث، فتغلب عن وجهة نظر المسلمين وتقاطع
نشاطاتهم البناءة فلا تنشر ما يلقي الضوء على تحركاتهم
ومجهوداتهم القومية، ولا تعالج مشاكليهم معالجة محايدة بأمانة
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي

صحفية، وإنما تقدم تحليلات وتقارير مضللة تحمل المسؤولين مسؤولية التخريب وإثارة الفتنة، وكثيراً ما عقدت اجتماعات حاشدة للمسلمين اشترك فيها مئات ألاف من الناس فكان لها صدى بعيد، لكن الصحافة القومية لم تنشر خبراً عنها بينما تغطي اجتماعات منعزلة لعناصر معاوية للإسلام والمسلمين، وإن الأمانة الصحافية تقتضي أن تقوم الصحافة بإعلام القراء بكل ما يحدث في البلاد، حتى لو عقد الخناصس اجتماعاً حضره عدد ملحوظ، أو عقدت عصابة مجرمة جلسة لتدبير خطة، ينبغي على الصحافة أن تغطيها، لكن موقفها إزاء المسلمين موقف مقاطعة، وإذا نشرت خبراً نشرته من زاوية معاكساً، ويتحمل المسلمين أيضاً مسؤولية كبرى عن عدم عرض موقفهم، فإنهم لم يفكروا في إصدار صحيفة إنجليزية أو هندية واسعة الانتشار تحمل وجهة نظرهم وتغطي نشاطاتهم.

تكون وراء هذه الحوادث عادة شائعات ملفقة ونشاطات مهيبة لزعماء متطرفين يحملون الحقد ضد المسلمين، فينتهزون كل فرصة لنزاع أو أزمة اجتماعية للهجوم على المسلمين، الذين يصفونهم بأنهم عملاء للدول الأجنبية وغير موالين للوطن، وتشتركون في إثارة هذه التهم والشبهات والكراهية ضد المسلمين صحيف الاغليبة، وتعقد اجتماعات سرية يشتركون فيها المتطرفون ويهيجون فيها الأعصاب ضد المسلمين وتنظم
عصابات مدرية على أعمال القتل والنهب للهجمات على المساجد والمنازل والمتاجر التجارية، والمارة بصورة منتظمة.

ويشكو المسلمون أن أجهزة الأمن تقف مترفجة أو محايدة خلال هذه النشاطات المثيرة للفتنة، وأحياناً تتخذ إجراءات سلبية، وتحول دون الدفاع عن النفس، وتبنيونا لتحركات ونشاطات المتطرفين يتحول المعتدى عليه معتدعاً في نظر القانون والسلطة العليا، فيواجه محاكمات ومضايقات إلى أن تتضح الصورة، وتنتفض سحب الرب والشهبات.

وقد عينت الحكومة المركزية لجان تحقيق لدراسة الأسباب المؤدية إلى حدوث هذه الاضطرابات، كما عينت لجنة الأفقيات لحل مشاكل الأفقيات، ولكن المشكلة لا تزال مستمرة، ولم ينقطع حدوث الاضطرابات الطائفية، والواقع أنها ترجع أساسياً إلى نفسية خاصة للشكوك والشبهات بين الفريقيين، ونشاطات بعض المنظمات التي تقوم ببث الكراهية ضد المسلمين، وعدم ثقة المسلمين بأجهزة الأمن في تأمين مصالحهم. فيجب لحل المشكلة اتخاذ تدابير شاملة، كتحميل أجهزة الأمن مسؤولية إقرار الأمن والنظام والقيام بواجبها بحياد، وإزالة الشبهات والشكوك ومكافحة الكراهية في الأغلبية عن المسلمين، وقمع نشاطات الإرهابيين الذين يثيرون هذه الكراهية، وإيجاد جو من الثقة بين مختلف الطوائف، فإن هذه الاضطرابات الطائفية
مشكلات الشعب الإسلامي الهندی

تكلف البلاد خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات كما تصرف الاهتمام عن تنمية البلاد، وقد واجهت عدة مدن صناعية اضطرابات طائفية، كجابور، جمشيدبور، رانجي، راوركولا، أحمد آباد، مراد آباد، ميرت، وأبدت فيها ممتلكات ولقي ألوان من المواطنين مصرعهم، وقد اعترفت الحكومة أن الجهود التي بذلت للسيطرة على هذه الظاهرة، لم توفق كلياً، وأن سلسلة الاضطرابات تستمر في البلاد، وفيما يلي تقرير رسمي عن الوضع الطائفي:

<table>
<thead>
<tr>
<th>عام 1979–1984</th>
<th>عدد الحوادث</th>
<th>الوفيات</th>
<th>الإصابات</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td></td>
<td>304</td>
<td>261</td>
<td>2797</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>1980</td>
<td>375</td>
<td>2838</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>1981</td>
<td>319</td>
<td>2613</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>1982</td>
<td>196</td>
<td>3025</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>1983</td>
<td>474</td>
<td>3478</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>1984</td>
<td>404</td>
<td>3002</td>
</tr>
</tbody>
</table>

هذه أرقام رسمية، أما الأرقام التي جمعتها المنظمات المطوعة والأحزاب السياسية فهي تتفوق كثيراً الأرقام الرسمية، ولا تشمل هذه الأرقام عدد القتلى والجرحى في آسما ومراد آباد حيث بلغ العدد عدة آلاف.

المشكلة الاقتصادية المشكلة السادسة هي المشكلة الاقتصادية، فمما قرره فلسفة التاريخ وأثبتتها تجارب الأمم أن الحالة الاقتصادية لها
تأثير كبير في مستوى عقلية الشعب وصحته ومواهبه وذكائه وطموحه.

فالأزمة الاقتصادية والفقر الذي يعانيه الشعب وما ينتج عن سوء التغذية، والحرمان من الفرص، واليأس من المستقبل، وفوتور الهمة، والاعتزال عن الوظائف الكبيرة، يؤثر في الشعب تأثراً عميقاً، وينزلها من مستوى الشعوب الراقية الذكية الطامعة، إلى مستوى الشعوب المنحطة الخاملة وطبقة المنبوذين، وقد كانت موارد المسلمين المهمة إلى عهد الحكومة الإنجليزية، الإقطاعية، والملكية، والوظائف الحكومية، والتجارات الكبيرة، وقد ألغيت الملكية بعد التقسيم، ولا تخلو هذه الخطوة الجريئة من إصلاح وفوائد للمجتمع الهندي، أما الوظائف الحكومية فقد بدأ قسط المسلمين منها يقل ويضعف، حتى أصبحت نسبة ضئيلة تنذر بتطور خطير في أوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية، ومن اطلع على أعداد المنتخبين للوظائف خصوصاً في الجيش والشرطة والوظائف الرئيسية، التي تطلع في الصحف بين حين وآخر وقارن بينها وبين أعداد الموظفين قبل التقسيم، اعتقد أن المسلمين قد غادروا هذه البلاد ولم يبق منهم إلا الأعيان الذين لا يستحقون هذه الوظائف، واستطاع أن يتبنا بأن المسلمين سيقصون عن الجهاز الإداري في مدة قليلة، وإذا أحيل
الموظفون الكبار الذين لا يزالون في وظائفهم منذ عهد الإنجليز على المعاش لا يبقى في الحكومة من يمثل ستين مليوناً من المسلمين، ومما يلقي الضوء على هذا التدهور في نسبة الموظفين المسلمين ما يثير من الأسئلة بعض الأحيان في بعض مجالس التشريع، وما يظهر في تقاريرات الحكومة وبلاغاتها من الأعداد، تلتقط منها مثالين فقط: منها ما قيل في مجلس ولاية دهلي التشريعي «أن عدد الموظفين المسلمين في بوليس هذه الولاية كان 1470 قبل التقسيم وليس في البوليس الآن إلا 56 موظفاً مسلماً، ولم ينتخب إلا مسلمان بعد سنة 1947 م» المثال الثاني ما قال وزير الدفاع في أبريل 1954 في خطبة ألقاه في جامعة عليكر، أن نسبة المسلمين في الجيش كانت 32 في المئة قبل التقسيم وليس الآن إلا أثنايئين في المئة».

ويمكن أن يقاس على ذلك الوظائف المهمة الرئيسية مع أن المسلمين لم يفقدوا ذلك الذكاء، وتلك المواهب التي اشتهروا بها في القديم واستحقوا بها ثقة الحكومات، وتقلد المسؤوليات، ولا يزال عدد المتعلمين فيهم يزداد ويتضخم، والعصر عصر التعليم والثقافة، وهذا من أسباب انتقال عدد كبير منهم إلى باكستان خصوصاً الشباب المثقفين الذين يحرزون الشهادات العالية في العلوم والآداب، ويثبون نبوغهم وبراعتهم، ثم لا ينالون ما يستحقون من المراكز في الحكومة، مع أن دستور
البلاد قد ساوى بين طبقات الشعب وطوائفه، وتكفل تكافؤ الفرص لجميع الطوائف والعناصر في الجمهورية الهندية، والمساواة بين الحقوق، وهو الذي يضمن زوال هذا الوضع وعدم بقائه؛ لأنه وضع مضاد للدستور ومناف للجمهورية إذا سرت روحها في طبقات الشعب وتغلغلت في المجتمع وزالت رواسب العهد الماضي.

هذه رؤوس المشكلات التي يعانيها الشعب المسلم الهندي في هذه الفترة التي لا بد منها لكل بلد بقي تحت الحكم الأجنبي مدة طويلة، ولم يسع الجمهورية إساغة كاملة ولم يتعودها بالمعنى الصحيح، ولكن نرجو أن هذه الفترة لا تطول لأنها غير صالحة للبقاء في هذا العصر المتحرر الجمهوري، وسيغلب العقل على العاطفة والوعي السياسي على العصبية الطائفية والعقلية الضيقة، وحينئذ تنحل هذه المشكلات، وينال الشعب الإسلامي كل ما يستحقه من الحرية والكرامة والمساواة كجزء من أجزاء هذا الوطن العزيز وركن من أركان هذه النهضة المباركة، إذا أثبت جدارته واستقامته وصبره واعتماده على الله، والله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.
أرحبت بكم على أرض قامت عليها تجربة من نوع فريد في تاريخ الديانات والحضارات والثقافات نجحت نجاحاً منقطع النظر، تجربة دخل دين يواكب العلم والحضارة، ومنهج خاص للحياة، لا تربطها به لغة ولا آداب ولا حضارة.

(1) مأخوذ من كلمة الترحيب التي ألقاها المؤلف في مفحت المهرجان التعليمي لندوة العلماء المعقد في 25 شوال 1395 هـ (شهر نوفمبر 1975 م) نقله هنا بعد حذف فقرات التحية والترحيب والاستقبال، فإن المقال يقدم عرضاً موجزاً لأهم أحداث التاريخ الإسلامي في الهند ودور المسلمين في المجالين: التعليمي والثقافي، ويكاد يكون ملخصاً لموضوع الكتاب.
ولا قومية ولا عنصرية، ولا عادات ولا طبائع، فبرزت هذه التجربة على القوة المدوّعة في طبيعة الإسلام، وقدرته على إشعال المواهب، وتفتيق القراص وإثارة الدفاع، واستخدام القدرات البشرية في صالح الإنسانية، وعلى استجابة الطائفة البشرية السليمة له، كأنما كانت منه على موعد وشيااق، ومعه على تفاهم واتفاق، وبرزت كذلك على خصبة التراث كرم المنبت، وعلى أن العلوم الإسلامية تورق وتثير في كل بيئة ومناخ، وقد تكون أكثر ازدهاراً، وأفضل ثماً، إذا غرس في أرض بكرا، وتناولها عمل التلقين الحكيم، و«التأثير» السليم، وعلى أن الشعور بالتربة، والبعد عن مصدر هذه البداية، ومنطلق هذه القافلة، والآس من وصول الميرة والمدد، والاعتماد على نصر الله وحده، ثم الاعتماد على الرسالة التي تحملها هذه الجالية، وصلاحيتها للبقاء، وتفعيلها للإنسانية المزدوجة، والشعور بكونها على ثغرة من ثغور بعيدة عن مركز الإسلام، كلفها الله حراستها والذود عنها، يثير في هذه الجالية قوة تصنع العجائب وتأتي بالمعجزات، وتغلب على كل مقاومة ومحاربة، ومؤامرة ومعاكسة، وتكدب تجارب الأمم، وتبطل المنطقة المادي الذي يؤمن بالرياضيات، وفسلفة الأعداد والعدد، وخضوع النتائج للمقدمات والسببات للأسباب.

تدخل هذه الجالية في البلاد غريبة، فلا تلبث أن تتخذها داراً
وقرر أن يحبها أبناؤها وتحبهم، ويرون فيها الأخ الكريم والأب الرحيم، والأستاذ الشفيع، والحاكم الرفيق، والصانع الحاذق، والإداري الحازم، وتصب على هذه التربة أفضل ما عندها من طاقات وكفاءات، وعلوم وتجارب، وتعليمات وآداب، وإبداع وابتكار، ونشاط وحماس، وقوة عمل وقوة إرادة، وحسن تنظيم وقدرة إدارة، وتلتقى الفروسية التركية، وقوة الإدارة المغولية، والنخوة الأفغانية، والطبيعة الإيرانية، المرحلة القلمية، الهائمة بالجمال والخيل، ورقة العجم وخفة روحهم، مع جدية العرب وسلامة ذوقهم، مع طبيعة البلاد وأبنائها الراقي، الوادعة، والولوع بالفلسفة والتصوف، تسيطر على جميع هذه العناصر والعوامل عقيدة التوحيد النقية، وتعليم الشريعة الإسلامية السمحة، وتصهرها في بوتقتها، فتنشأ من كل ذلك حضارة جديدة تستحق أن تسمى "الحضارة الإسلامية الهندية".

وقدت في الهند مدرسة حضارية فكرية علمية، ذات شخصية خاصة، وطابع خاص، أنجبت عدداً كبيراً من النواح، وأثجَّة الفنون الإسلامية، وأصحاب الإبداع والابتكار، والأصالة العلمية، كانوا أصحاب مدارس خاصة، وفاتهي آفاق جديدة، ليس في العلوم الدينية كالتفسير والحديث، والفقه والعقائد فحسب، بل في علوم اللغة والأدب العربية، أفر لهم
علماء العرب بالإمامة والزعامنة فيها، وعدت كتبهم من المراجع الرئيسية في هذه العلوم، وبعضها فريد لا نظير له في المكتبة الإسلامية العالمية، وأمدت هذه المدرسة الحركة العلمية والتلقيفة في العالم الإسلامي والعبري التي أصابها الفتور، وغشيها الإعياء الفكري في بعض الفترة بعد القرن الثامن الهجري، بدء جديدا ونشاط جديد، وأصبحت معقلا لبعض العلوم الإسلامية - بعد الزحف التتاري - وصارت أكبر مركز لعلم الحديث الشريف في الزمن الأخير، ومصدر إشعاع وتصدير بعد ما كانت مركز استفادة واستيراد، ونبغ فيها أكبر علماء هذا الفن، وألف فيها أحسن الكتب في هذا الموضوع، وقاد بعض رجالها في مختلف العهود حركات الإصلاح والتجديد، والبعث الجديد، سمع صداها العالي، ورؤيت أثارها الطيبة المبكرة في نواحي العالم الإسلامي البعيدة.

ثم أراد الله أن تخوض هذه البلاد أكبر معركة حضارية، ثقافية فكرية، شهدتها التاريخ المعاصر، وأن تواجه أعنف صراع بين المبادئ والعقائد، والقيم والمفاهيم، والمعايير والموازين، معركة قامت بين الحضارة الغربية والفلسفة الغربية، وبين

(1) اقرأ للتفصيل كتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" للعلامة السيد عبدالحي الحسيني، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق.
الحضارة الإسلامية والفلسفة الإسلامية، وصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرية الغربية، بأساس معاينتهما وأدغمهما، فكانت معركة حامية دامية، وصراعاً عنيفاً قاسياً، فقد واجه الشعب الهندي المسلم المتمكن بالجراح، المصاب بدهشة الفتح، الحضارة الغربية الفتيء الدافقة بالحيوية والنشاط ووجه، لا حاجر بينهما ولا فجوة، ودام في ربيع الهند الحكم الإنجليزي الثائر الموتور الحاصل على هذا الشعب الذي تسلم منه مفاتيح البلاد، وذاق من جراح الثورة العارمة، والاربع المسورة قرناً كاملاً، يحمل الروح الصلبية مع الروح الاستعمارية، يرى في الشعب المسلم منافسه الحقيقي الدائم في كل زمان ومكان، ويرى في الإسلام معركة يواسي معسكره على طول الخط، وكل يدعي أنه يقود الحياة وصوغ المجتمع، ويشعر ويسن القوانين، ويملاً النزاع الذي لا بد أن يملأ، فكان نصيب الشعب المسلم من لهيب هذه المعركة وخسائرها وغراماتها أكثر من نصيب أي شعب آخر، وكان أكثر حساسية وأكثر حساساً لهذه المعركة من جميع الشعوب بطبيعه الحال، وقد سجل التاريخ الأيمن المنصف، أنه كان أكثر صموداً، وأكثر احتراماً بشخصيته ومعنوياته، وأكثر تمرداً واستعضاً على حركة الإبادة الدقيقة الشاملة من أكثر الشعوب الإسلامية التي أكبت بنا الاستعمار الأجنبي ووقعت تحت نيره.
هذا عدا حركة "التنصير" التي يسميها أصحابها حركة "البشير" التي واجهها المسلمون في الهند على إثر استقرار الحكم الإنجليزي، وقد كانت تكتسب البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وكنت مسلحة بأقوى الأسلحة وأشدها تأثيراً في الشعب المفتوح المهاني، وتتمتع بحماية الدولة التي تعتبر هذه البلاد منحة من السيد المسيح (عليه نبئا وعليه الصلاة والسلام) والسياحة على البلاد فرصة سانحة للدعوة إلى الدين المسيحي، ترافقت حركة التنصير حملة تشكيكية قوية، تشكيك في كل ما يتصل بالدين الإسلامي من شريعة وحضارة وثقافة وتاريخ، وقد قاوم علماء المسلمين كتلا الحركتين بقوة زائدة، وقدرة قائلة، وآثارها سياسة الهجوم وال النقد العلمي على سياسة الدفاع والتماس العذر، فانحرفت موجات الدعوة التشكيكية، والحركة التشكيكية، وتراجعت إلى الوراء، وازداد المسلمون إيمانًا وثقة بدينهم، واعترارًا بحضارتهم وثقافتهم، واعتدادًا بشخصيتهم وتاريخهم.

وأمّ عدد كبير من الشباب المسلمين مراكز الثقافة الغربية في كبرى العواصم الأوروبية، وخصصوا في علومها العصرية، وحذروا اللغة الإنجليزية كأبنائها، وكان منهم أدباء، كتاب، مؤلفون، ومعلمون، وإداريون، شهد ببراعتهم وتفوقهم علماء الغرب، ولكن كان منهم أكبر نقدة، وأقوى ثائرين على الفلسفة.
الغربية الماديه، والفكرة الغربية المتطرفة المتعصبة للمسيحية أحياناً، والمتحللة الملحدة أحياناً كثيرة، وتناولوا الحضارة الغربية، والفلسفات الحديثة، بنقد علمي عميق، وتشريح جريء دقيق، وتهكم لاذع رشيق، كل على حسب أسلوبه الخاص، وظروفه الخاصة، وصارت من أفلامهم أقوى كتابات في عرض الإسلام كدين كامل شامل، ومهاجمة الحضارة الغربية في أسلوب مليء بالثقة والاعتزاز، بعيد عن كل تأويل واعتذار، وأنشأوا جبهة علمية قوية أمام دعوة الفكر الغربية والحضارية، شعارها إنكار إمامة الغرب، وعصمته من كل خطأ، وبراءته من كل ضعف، والافتكار بالإسلام كرسالة إنسانية عالمية خالدة، والإيمان بمحمد ﷺ كخاتم الرسل، ومنير السبل، وإمام الكل.

ثم واجه الشعب المسلم الهندي تجربة جديدة، ودخل في فترة كبيرة الأهمية، هي تجربة ممارسة الحياة الحرة الاستقلالية، التي كان من أول دعاتها، ومن أكبر أبطالها، والمضحين في سبيلها، والتي يسهم فيها كأبناء البلاد، وأفراد الشعب المواطنين المناضلون الحر الأبي الكريم، فترة انتقال من الحكم الأجنبي إلى الحكم الذاتي، تسن فيه قوانين جديدة، ويصاغ فيه المجتمع صوغاً جديداً، ويوضع للتربيه والتعليم نظام جديد، وتحكم في حياة البلاد انتهاجات طائفية أحياناً، عاطفية.
شخصية الشعب المسلم

وأصابية أخرى، قد حرص الحكم الإنجليزي على إضعافها وتأخيرها في ميدان الحياة، تحيط بها حالات من رواض الماضي، ومن شبهات هنها، بريئة كل البراءة، ومن تصرفات هي منها بعيدة كل البعد، وكل ذلك يضخم مسؤوليتها، ويعضف موقفها، ويحرج مركزها، وهي مع كل ذلك مصممة على البقاء في هذه البلاد، مع الاحتفاظ التام بشائر دينها، وخصائص حضارتها، وشخصيتها، لا تتخلى عن شيء من ذلك، فكانت محنة ذكاء ومحتكة وفاء، محنة عقيدة جاذبة، ومحنة وطنية صادقة، محنة الشخصية القوية العبرية، ومحنة الروح الإيجابية البناءة، محنة يقل نظيرها في التاريخ الإسلامي القديم، فلا تمكن الاستنارة به في ذلك، ويندر الحديث عنه في كتب الفقه والفتاوى، ومنى وجد ستون مليوناً أو أكثر من المسلمين في أثرة غير المسلمين، في بلد يحكمه البرلمان، ويسيطر عليه الدستور، واتخذ العلمانية له شعاراً، فلا سبيل إذا في تخطيط الحياة اللائقة العملية الخاضعة لتعاليم الإسلام والحقائق الراهنة، إلا الأصول الإسلامية الحكيمة، الخالدة العالمية، والذكاء الألمنسي، والشخصية القوية، والعزم الصادق، والإيمان الراשים، وإيثار حياة الشرف والكرامة على حياة اللؤم والمهانة، والاستشراف لتواء مكان القيادة الخلقي التي لا يزال منصبها شاغراً، والظهور على منصة هذه
البلاد ومسرحها كداع مخلص رئيسي، وقائد خليقي إنساني، مجرد عن كل شهوة وأثاثية، وأغراض فردية وجماعية، ينقذ هذه البلاد من الهوة السحيقة العميقة من الانحطاط الخلقي، وتقديس المادة والتهالك عليها، والانتحارية، ونسيان فاطر الكون، وذلك هو الطريق الوحيد الذي يرفع هذا الشعب من مستويات الشعب العموم إلى مستوى الرائد، والقائد الرفيع السامق.

وقد عرف الشعب المسلم الهندي في تاريخه الطويل - ولا أزكي على الله أحداً، إنما هو تحديث بالنعم، وتحرير الواقع التاريخي - بقوة عاطفته الدينية، وحبه العميق، المتغلغل في الأحشاء لرسول الله ﷺ، وارتباطه بمهد الإسلام ومركبه، وذلك الذي حمده من أن يذوب ويفقد شخصيته، كما كان الشأن مع الشعوب التي دخلت في هذه البلاد في فترات مختلفة، وأبدى اهتمامه الشديد بقضايا الإسلام والمسلمين في الزمن الأخير، قد تبنى قضية الدفاع عن الخلافة العثمانية بحماس منقطع النظير، ولا تزال «حركة الخلافة» التي كان لها فضل كبير في إثارة الوعي السياسي والوطني في شبه القارة الهندية، كبرى حركات الهند الشعبية، ووضع دهشة المستعمرين، وموضوع المؤرخين والمؤلفين، وكذلك أبدى اهتمامه الشديد بقضية فلسطين، والمسجد الأقصى المبارك، وكان مرخف الحس،
رقيق الشعر، شديد الانفعالية في كل ما يقلق المسلمين في
مشارك الأرذ ومغاربها.

وقد تجلت قوة عاطفته الإسلامية، وشدة تمسكه بالدين،
وعاليمه وثقافته، في شبكة المدارس الدينية والكتباء
الإسلامية، الدقيقة الواسعة، التي قلما خلت منها قرية كبيرة
فضلاً عن المدن والأمصار، وقد أسسها المسلمون في طول
الهند وعرضها، بعد استقرار الحكم الإنجليزي، وتملكه لزمام
المرتبة والتعليم في القطر الهندي، وهي تتجاوز المئات، وتبلغ
إلى الآلاف، ومنها عدد كبير يسمى (المدارس العربية) لعنايتها
ال Заيدة بالعلوم الإسلامية التي ألفت كتبها في اللغة العربية.
وعنايتها بالقرآن والحديث اللذين هما بلغة العرب، وهي تبني
غالباً بتدريس الجامع الصحيح للبخاري بصفة خاصة، وتدريس
صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود بصفة عامة،
وتكاد تكون هذه المدارس كلها شعبية يمولها ويكفلها الشعب
المسلم، ويعتبر ذلك سعادة وعبادة، ويتناقص فيه، وذلك سر
وجود هذا العدد الكبير من العلماء المحتسبين، والدعوة
المتطوعين، والمعلمين المختصين في كل زمان، الذين
يعيشون على الكفاف، وبلغة من العيش يتبلغون بها في نشر
العلم، والدعوة إلى الله، وتعليم الناس دينهم.

ومن سمات العلماء والمعترين في هذه المدارس الدينية
البارزة، أنهم كانوا في طليعة المناضلين لتحرير البلاد وإجلاء المستعمرين» وفي مركز القيادة في هذه الحركة الشعبية القوية، ومنهم انبثقت فكرة النضال ضد الاحتلال في الحقيقة، وقد قاد كثير منهم حركات المقاومة الفعالة والثورات المسلحة بمقدرة وشجاعة، فمنهم من قتل شهيداً، ومنهم من شنق، ومنهم من نفي إلى جزائر إندمان، أو إلى منفى جزيرة مالطة، ومنهم من قضى شطراً من حياته في السجون والمعتقلات في داخل البلاد، وتاريخ حركة التحرير والاستقلال مقترب بتاريخ العلماء والشخصيات الدينية في الهند، متداخل فيه، بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

ومن سماتهم البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنسانشية في شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعاة القوي السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع والنشر الفني بعد ثورة 1857م، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة، لا يزال لها أنصار وأتباع ومقلدون، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير، النقد وتاريخ الأدب والشعر، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولهجة البلاد، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر، والناشرين بهما.
الفجوة التي جمت على الدين والأدب في وقت واحد.

واصبح الشعب المسلم الهندي اليوم مكتفاً بالإسلام، يستمد قوته وصموده من مباني الإسلام الأصيلة، كالكتاب والسنة، وسلموك الرعيل الأول من المسلمين، وجهاده ووفاته وبطولاته، وسيرة السلف الصالحين الذي أحسنوا فقه الإسلام، وأساغوا تعاليمه، واستقموا على الطريقة، قد ربط عقيدته ومصيره وسلموك بالإسلام، ولم يربطه بالمسلمين عريباً كانوا أو عجماً، فليس "إمامة" يقول إن آمن الناس آمنا، وإن كفرنا كفرنا، وإن استقمنا استقمنا، وإن انحرفنا انحرفنا، ولا يشترط لوفاته للإسلام، وفيما شعب من الشعوب الإسلامية للإسلام، بل يرى ذلك لزاماً عليه وشكرًا لنعمة الإيمان التي لا نعمة أعظم منها، وهو يدعو الله أن يبقى متمسكاً بالجامعة الإسلامية، معترزاً بحضارة الإسلام وفلسفته، متمسكاً بالدين الإسلامي كدين كامل يقود الحياة كلها والأزمة والمجتمعات كلها، حين تؤمن شعوب كثيرة بقومياتها وحضاراتها البائدة، وفلسفة عتبة وحديثة، منافية للإسلام أو منافسة له، وأن يلهم الانت على المبادئ والقيم، والمثل العليا، مهمها كانت قيمته في الحياة المادية والفرص المواتية، حتى يستطيع أن يخاطب ربه وينشد:

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضي والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وكل الذي فوق التراب تراب
إذا صح منك الود فالكل هين

* * *
شعب يُقرر ويؤمِّد الله

نختتم هذا الكتاب بالكلمة التي ألقاها المؤلف في مؤتمر التعليم الإسلامي (الذي انعقد في 4 و5 من يونيو عام 1961 في لكونكر تحت رئاسته) في جلسته الأخيرة، وهي تحدد موقف المسلمين في الهند ومركزهم وتنير الطريق لهم، وهي من خير ما يختم به هذا الكتاب.

أيها السادة: نحن الآن في الجلسة الأخيرة من جلسات المؤتمر، وسترجعون إلى بلادكم ومراكزكم، وأحرص على أن لا ينفض هذا المجلس إلا وأنتم تحملون رسالة معكم، ولا تقوموا من هذا المجلس إلا بعد ما عاهدتم الله، وأخذتم من نفوسكم ميثاقاً ترتبطون به في حياتكم، وإن مستقبلاً يوقف على هذا الميثاق.

إن لهذا الميثاق جزءين: أولهما أن نؤمن بأن هذه البلاد - الهند - هي بلادنا ووطننا، وسنعيش فيها كأبناء، وحقنا على
هذه البلاد لا يقل عن حق أكبر مواطن وأقدم مولود فيها، وليس لأعظم شخصية في روعة الهند - سواء كان رئيس الجمهورية الهندية أو رئيس الوزراء - أن يدعي أن حقه على هذه البلاد يزيد على حقنا، فهذا البلد حبيب إلى نفوسنا، ونحن حرة دستوراً، لا نسمح بخيانة فيه، أو مؤامرة ضدّه، إن كل شبر من أشباه هذه الأرض الواسعة الجميلة يحمل ذكرياتنا الخالدة، ويشهد بعهدنا الجميل الزاهر، ومواهبنا النادرة، ونحتاجها الضخم. لقد كانت هبتنا لهذه البلاد ونصيبنا في ترفيها وترقيتها وتزيينها يفوق نصيب كل شعب حكم هذه البلاد، لقد ولدت هذه البلاد في عهدنا ولادة جديدة، ووصلت إلى أوج الحضارة والتمدن، ومن أراد أن يعرف ما نقله المسلمون إلى هذه البلاد من ثمرات الحضارة ونتائج العقول وما أضافوا عليها من الجمال والكمال فلينظر إلى ما كانت عليه قبل دخول المسلمين، ثم يقارن بين ذلك وبين ما تجملت به بعدما استمر الحكم الإسلامي مدة من الزمان وما هي عليه الآن، فهذه البلاد بلادنا، إنه وكرنا الذي ناوي إليه وننظر منه، وحقنا عليه حق الطائر على عش، وعلى روضته التي ورد وعاش فيها، يتمتع بأنهاها وأشجارها، ويتغنى بأزهارها وأشعارها، يجلس على أي غصن شاء، ويطرد في الأجواء في حرية وانطلاق، ومن غير خوف وإشراق، فوطنتنا صادقة، وحقوقنا المدنية لا تتحدى ولا تنافق.
يجب أن تكون هذه عقائديكم، وأن تكونوا من ذلك على ثقة ووضوح، لا يخلالكم في ذلك تردد واضطراب، ولا يسоворكم فيه خوف أو ارتياب، نحن أبناء الهند، ونسعيش فيها كأبناء وأصحاب البلد، ونسنهم في تقدمها ورقيها، وتحقيق مشاريعها العمرانية ورفع مكانتها السياسية، بكل نشاط وحماسة، بكل رغبة وسرور، وسنظلال محافظين على كرامتها وشرفها وروح دستورها، وسنقوم بواجبنا وإن تخلف عن أداء الواجب كل هندي وكل مواطن، فنحن أبناء بروة وقوم أشراف ومواطنون أوفياء، هذا هو الميثاق الذي أخذناه من نفوسنا، ونريد أن نجددو في هذا المجلس.

والشطر الثاني من هذا الميثاق أتينا عاهدنا أن نعيش في هذه البلاد بكل خصائصنا المللية، وحضارتنا الإسلامية وشعائرنا الدينية، وباخلاصنا الاجتماعية وشخصيتها المسلمة، لا نتخلى عن شعيرة من شعائرنا، ولا نتنازل عن جزء من أجزائها، يحرم علينا أن نعيش مجردين عن هذه الخصائص، وعن هذه الحضارة وعن هذه الشخصية، ولا لذة في الحياة ولا خير فيها بعد ذلك، فإذا لم يكن لنا أن ننقل عقيدتنا وتراثنا الحضاري إلى أجيالنا وأولادنا، وأن نعلهم كما فرضه علينا مبادئنا وعقائدا الإسلامية، وإذا لم يكن لنا كذلك أن نثر عينا بإسلاميتهم ونشأتهم الدينية، فليست هذه الحياة حياة الأشراف الأحرار.
فضلًا عن أن تكون حياة المسلمين الأبرار، إنما هي حياة الظهائر والسائمة، حياة السيران والحمير والكلاب، إن الكلب يكفيه أن ينال راتبه من أكل وشرب، وأن يكون مصونًا من الأعداء، وأن يكون حراً في الإنتاج، وأن ينال شبعه وريقه على يد سيده، وكذلك يكفي الثور أن ينال علفه وأن يكون آمناً في مربطه أو حراً في غابته، فإذا تم له ذلك طابت حياته، وتحقت رغباته، وكممت حريته، ولا يفكر في تربية أولاده على أسلوب خاص، ولا يفكر في عقيدة ينقلها إلى أولاده أو يأخذها بها، حتى إذا منع من ذلك وحرم فرصه ووسائله ثار واضطراب وتكدر عيشه.

ولكن الإنسان يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فلا يكفيه أن يقطع له من الرزق، أو يأتيه رزقه رغداً، ويرتب له غذاؤه وقوته، وما لا يعيش بغيره، وأن يحفظ من الاعتداء على النفس والعرض والمال، إنه يريد أن يضم إلى ذلك حرية تربية أولاده وتعليمهم، وأن ينقل إليهم عقائده وعقائطه وثقافته وما يؤمن به من مبادئ، ويتمسك به من أصول، ويستميت في سبيله من دين، وأن يرى أولاده وخلفاءه وأفلاذ كبده على الطريق الذي اختاره لنفسه وأثره على غيره، لا تسلط عليه عقيدة يكفر بها ولا ثقافة يعارضها، لا يملك من أولاده ومستقبلهم وسيرتهم شيئاً، ويراهم يرتدون عن دينه، وينسلخون عن حضارته، ويتجردون عن خصائصه، فلن-UAZd الله على أن نعيش عيش
الأشراف الأحرار، عيش بني آدم الذين أكرمهم الله بالإنسانية، ولا نعيش عيش البهائم الداجنة أو الكلاب المقثنة، ولا نقتنع بحرية الأكل والشرب، وضمانة الرواتب وتكافؤ الفرص، في قضاء مأرب النفس وتربيا الأجسام وتولي الوظائف فحسب، إننا نرفض هذا الأسلوب من الحياة، وهذا المنهج من التفكير، وهذا النوع من الحرية، وهذا القدر من الوطنية.

سادتي: إن في هذه البلاد منذدين ينحدرون من الشعوب التي استعدوا الذين فتحوا هذه البلاد قبل آلاف من السنين، واضطروهم إلى أن يعيشوا في ظلم وفقر وضعف وعرة، يتنجس الإنسان إذا مسهم، ويعاب إذا جالسهم، ويعاقب إذا واكلهم، إن هؤلاء الأشياء جنوا على أنفسهم يوم دخل هذه البلاد الفاتحون من أواسط آسيا جنابة يحتملون جرائهما إلى هذا اليوم، وسيتحملونها إلى قرون وألاف من السنين، كان ذلك أنهم آثروا حياة الذل على موت الشرف، إن الشعوب تختيء مرة وتعابق آلاف من السنين، لا نريد أن نرتكي هدا الخطأ، إننا نعاهد على أن نعيش في الهند حياة كريمة شريفة، لا حياة الكلاب ولا حياة المنذدين.

إنهنا لا نعيش فيها حياة العبيد، إننا أبناء هذه البلاد، لنا من الحقوق والحقوظ ما لغيرنا، إننا بناء هذه البلاد ومن مؤسس حضارتها، وأصحاب الفضل عليها، وليس لقوة في العالم
أن تسلمت هذا الحق الطبيعي، وهذا الحق الدستوري، لقد انقضى عهد الاستعباد والاستعمار، وليس شعباً يعتمد شعباً آخر، وليس حضارة أن تقتل حضارة أخرى، وليس للغة أن تقتضي على لغة أخرى، ولقد أصبح العالم اليوم أسرة واحدة لا يخفى ظلم أو اضطهاد في قطعة أو بقعة، لقد استيقظ الضمير العالمي، فإذا ظلم السودان في إفريقيا أو الملدون في أمريكا صرح الضمير العالمي وثار الرأي العام، إننا نحن المسلمين - بصفة خاصة - أسرة عالمية منتشرة في الأرض مرتبطة بالعقيدة والدين والأخوة الإسلامية، لنا إخوان في جميع بقاع الأرض يتألمون بألمنا، إننا سنحارب كل ظلم، وكل ثورة على الدستور، إننا أمة لا تزال تملك تلك المواهب العظيمة التي خدمت بها الإنسانية وهذه البلاد، إننا لم نفلس في عقولنا وفي أخلاقنا، إن سحابتنا التي هطلت على الأرض لم تصبح جهاماً، إنها لافحة غنية بالماء والخصب.

إذا أياها الأخوة في هذا الثلاث الأخير من الليل الذي تنزل فيه رحمة الله ويجاب الدعاء وتصرف القلوب، نعاهد بكل إخلاص، أنا سنبقى في هذه البلاد بإسلاميتنا وإسلامية أجيالنا القادمة، ونبذل في هذا السبيل كل رخيص وغال، ونحتمل السراء والضراء، ونكون من إحدى الطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في سورة الأحزاب.
شعبة يقرر ويعاهد الله

«من المولى، رجاء صدقوا ما عهدوا الله علية فمسه من قضى أحدهم
ومسك من ينظر وما بدلوا تبدلاً.»

* * *
<table>
<thead>
<tr>
<th>الموضوع</th>
<th>الصفحة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>التعرف بمؤلف الكتاب</td>
<td>۱ - ك</td>
</tr>
<tr>
<td>مقدمة الطبعة الثالثة</td>
<td>۵</td>
</tr>
<tr>
<td>مقدمة المؤلف</td>
<td>۸</td>
</tr>
<tr>
<td>تقديم الكتاب للأساتذة علي الطنطاوي رحمه الله</td>
<td>۱۵</td>
</tr>
<tr>
<td>دور المسلمين في حضارة الهند</td>
<td>۲۷</td>
</tr>
<tr>
<td>تراث العلماء المسلمين العلمي في الهند، وعنائهم باللغة العربية</td>
<td>۴۷</td>
</tr>
<tr>
<td>نوابغ الشعب الهندى الإسلامي</td>
<td>۶۴</td>
</tr>
<tr>
<td>تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية</td>
<td>۸۰</td>
</tr>
<tr>
<td>الحضارة الإسلامية في الهند</td>
<td>۸۷</td>
</tr>
<tr>
<td>العاملان الأساسيان لتشكيل الحضارة</td>
<td>۸۷</td>
</tr>
</tbody>
</table>
فهرس الموضوعات

388
ثلاث سمات للحضارة الإبراهيمية
88
ذكر الله في حياة المسلم
89
السمة العالمية الثانية، التوحيد
92
السمة الثالثة، عقيدة كرامة الإنسان والمساواة الإنسانية
92
السمات الفرعية
93
موقع المسلمين إزاء الفنون الجميلة
94
الأخلاق الإسلامية
94
تأثير الهند في الحضارة الإسلامية
95
الحركة العلمية القديمة في الهند مراكزها ومزاياها
99
منهج التعليم القديم ومراكزه العلمية
99
السند وملتان
101
دهلي
101
لاهور
103
جونبور
104
كجرات
104
إله آباد
105
لكهنؤ
105
المناطق الريفية في شمال الهند
106
أدوار مختلفة لمنهج التعليم
107
الدور الأول
107
<table>
<thead>
<tr>
<th>249</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>فهرس الموضوعات</td>
</tr>
<tr>
<td>107</td>
</tr>
<tr>
<td>109</td>
</tr>
<tr>
<td>112</td>
</tr>
<tr>
<td>113</td>
</tr>
<tr>
<td>113</td>
</tr>
<tr>
<td>117</td>
</tr>
<tr>
<td>118</td>
</tr>
<tr>
<td>120</td>
</tr>
<tr>
<td>120</td>
</tr>
<tr>
<td>123</td>
</tr>
<tr>
<td>129</td>
</tr>
<tr>
<td>129</td>
</tr>
<tr>
<td>131</td>
</tr>
<tr>
<td>132</td>
</tr>
<tr>
<td>135</td>
</tr>
<tr>
<td>135</td>
</tr>
<tr>
<td>136</td>
</tr>
<tr>
<td>137</td>
</tr>
<tr>
<td>138</td>
</tr>
<tr>
<td>139</td>
</tr>
</tbody>
</table>
دار المصنفين .................................................. 140
ندوة المصنفين .................................................. 140
مجلس التعليم الديني ........................................ 141
دائرة المعارف بحيدر آباد .................................... 141
الصوفية في الهند وتأثيرهم في المجتمع .............. 147
صلة الجمهور بالصوفية والتصوف وإقبالهم عليه .... 149
كلمة حق عند سلطان جائر .................................. 156
الزهد في زخارف الدنيا والاستهانة بمظاهر الجاه .... 159
نشر العلم والثقافة ............................................. 162
الكافالة والمؤاساة ......................................... 163
ملاجئ إنسانية .................................................. 165
المسلمون في الهند شعب ممتاز .......................... 168
الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند ....... 176
ثورة عام 1857 .................................................. 177
المؤتمر الوطني ............................................... 190
حركة الخلافة ................................................ 193
العصبة الإسلامية ............................................. 196
جمعية العلماء .................................................... 198
مشكلات الشعب الإسلامي الهندي .......................... 201
الدعوة الإسلامية .............................................. 201
الفهرس الموضوعات

الأحوال الشخصية ................................................. 205
التعليم والتربيه .................................................. 209
مجلس التعليم الديني ............................................. 212
مشكلة اللغة الأردنية ............................................ 213
الأمن الطائفي ...................................................... 220
المشكلة الاقتصادية ............................................. 223
شخصية الشعب المسلم مقوماتها ومصادرها ............. 227
شعب يقرر ويعاهد الله .......................................... 240
فهرس الموضوعات ................................................... 247

*  *  *
التعريف بمؤلف الكتاب
بقلم تلميذه السيد عبد الراجح الغوري

اسمه ونسبه وأسرته:

- علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني،

ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشير بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، أول من استوطن الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري وهو الأمير السيد قطب الدين المدني (77 هـ).

- أبوه العلامة الطيب السيد عبد الحي الحسني الذي استحق بجدارة لقب "أبن خلكان الهند" لمؤلفه القيم "نزهة الخواطر" (في ثمانية مجلدات ضخمة) عن أعلام المسلمين في الهند وعملائهم، أُخيراً باسم "الاعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام".
التعريف بمؤلف الكتاب

- أمّه رحمها الله كانت من السيدات الفاضلات، المربيات النادرات، المؤلفات المعدودات، والحافظات للقرآن الكريم، تقرض الشعر، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ.

ميلاده ونشأته:

- أبصار النور في 6 محرم 1323 هـ الموافق عام 1914 م بقرية "تكية كلان" الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابريش).

- بدأ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت، ثم دخل في الكتب حيث تعلم مبادئ اللغتين (الأردية والفارسية).

- توفي أبوه عام 1341 هـ (1933 م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين الناسعة والعاشرة، فتوّلّى تربيته أمّه الفاضلة، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرجه من دار العلوم ديواند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربيته سماحة الشيخ الندوي.

- بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليماني في أواسط عام 1924 م، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي، ثمّ توسّع فيه وتخصّص على الأستاذ الدكتور تقي الدين

- النادرات، المؤلفات المعدودات، والحافظات للقرآن الكريم، تقرض الشعر، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ.

- أبصار النور في 6 محرم 1323 هـ الموافق عام 1914 م بقرية "تكية كلان" الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابريش).

- بدأ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت، ثم دخل في الكتب حيث تعلم مبادئ اللغتين (الأردية والفارسية).

- توفي أبوه عام 1341 هـ (1933 م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين الناسعة والعاشرة، فتوّلّى تربيته أمّه الفاضلة، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرجه من دار العلوم ديواند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربيته سماحة الشيخ الندوي.

- بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليماني في أواسط عام 1924 م، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي، ثمّ توسّع فيه وتخصّص على الأستاذ الدكتور تقي الدين
التمحيص المراكيشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام 1930 م.

- التحق بجامعة لكونه فرع الأدب العربي عام 1927 م، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً، وكان أصغر طلبة الجامعة سنًا، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتبًا تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية، مثاً أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية، وتعلم الإنجليزية مما مكنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر.

- التحق بدار العلوم – ندوة العلماء عام 1929 م وقرأ الحديث الشريف (صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفًا حرفًا مع شيء من تفسير البيضاوي على العلامة المحدث الشيخ حيدر حسن خان الطونيكي، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلامة المفسر المشهور أحمد علي اللاهوري في لاهاور عام 1351 هـ/1932 م، وحصد دروس العلامة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديويند، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً.

جهوده العلمية ونشاطاته الدعوية:

- انخرط في سلك التدريس من عام 1934 م، وعيين أستاذاً
في دار العلوم ندوة العلماء لمداتي التفسير والأدب، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلات العربية الصادرة في البلاد العربية، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمعترفين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين.

- قام بزيارة إستطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام 1939م، تَعَرَّض فيها على الشيخ المرجعي الديارى عبدالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته، وَيَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم، وَتَلْقَى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسه، وتأسّس بالشيخ محمد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدعوة وإصلاح المجتمع، وقضى زمّنا طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجه.

- أسّس مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام 1943م، وَأَسَس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام 1951م، والمجمع
الإسلامي العملي بدار العلوم - ندوة العلماء في لكةهؤ عام 1959م.

- عُيِّن أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام 1961م.

(ولا يزال يترأس أمانة إلى يومنا هذا).

شارك في تأسيس هيئة التعليم المدني للولاية الشمالية (أترابردش) عام 1960م، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام 1964م، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام 1972م.

أهم مؤلفاته:

- نُشر له أول مقال بالعربية في مجلة «المنار» للعلامة السيد رشيد رضا المصري عام 1931م حول شخصية الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد، وكان عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً.

- ظهر له أول كتاب بالأردوية عام 1937م يحمل اسمه "سيرة أحمد شهيد" ونال قبولًا عامًا في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان.

- بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية، وظهر أول كتاب فيها بعنوان "مختارات من أدب العرب" عام 1940م، و"قصص النبيين" للأطفال و"القراءة الراشدة" عام 1944م.
و وقروت جميع هذه الكتب في مقررات جامعات البلدان العربية والهندية.

- ألف كتابه المشهور "ماذا خسر العالم بانحظرت المسلمين" عام 1944 م.
- دعي أستاذًا زائراً في كلية الشرعية جامعة دمشق عام 1956م، وألقى محاضرات بعنوان "التجديد والمجددون في تاريخ الفكر الإسلامي" نُشرت بعد ذلك في شكل كتاب مستقل ينضوي تحت أربع مجلدات باسم "رجال الفكر والدعوة في الإسلام".


- شارك في تحرير مجلة "الضياء" العربية الصادرة من دار العلوم - ندوة العلماء عام 1932 ومجلّة "الندوة" الأردوية الصادرة منها أيضاً عام 1940، وأصدر مجلّة باسم "تعمير حيات" في الأردوية عام 1948 م، وكتب مقالات في الأدب والدعوة.
التعريف بمؤلف الكتاب
والفكر في أمهات المجلات العربية الصادرة من مصر ودمشق
ك: "الرسالة" للأستاذ أحمد حسن الزيت و "الفتح" للأستاذ
محمد الدين الخطيب و "حضارة الإسلام" للدكتور مصطفى
السباعي و "المسلمون" للدكتور سعيد رمضان المصري.

• أُنْشِرَ على إصدار جريدة "نداء ملت" الأردنية عام
1962 م، وهو المشرف العام الآن على مجلة "البعث
الإسلامي" العربية الصادرة منذ عام 1955 م وجريدة "الرايد"
العربية الصادرة منذ عام 1959 م ومجلة "تعميريات" الأردنية
الصادرة منذ عام 1963 م، وكلها تصدر من دار العلوم - ندوة
العلماء في كهف هؤلاء (الهند).

رحلاته:

• سافر إلى الشرق والغرب مرات عديدة إلى الله بالحكمة
والموضوع الحسنة، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة
المتماسكة والمقوّرة وبالعمل الإيجابي البين في كل مجال،
جوانبًا للأفاق في سبيل الله، محاضراً، متحدثاً، ومحارضاً،
واعظاً وهايدياً، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية،
والجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية، والمؤتمرات
والندوات فيها.

(1) انظر للإطلاع على رحلاته كتاب "رحلات العلماء أبي الحسن علي"
تقدير وتكريـم:

انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مـراسلاً لما اتصـف به من العلم الجمّ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية، ومساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها.

اختير عضوًا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام 1962 م.

اختير عضوًا في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام 1971 م.

اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام 1980 م، لمؤلـفه القيم "ماذا خسر العالم بانحـطاط المسلمين".

منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الأدب من جامعة كشمير عام 1981 م.

اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام 1983 م.

اختير عضوًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.

الحسني الندوي، جمع وترتيب وتعليق مؤلف هذا الكتاب، وقد صدر من دار ابن كثير دمشق - بيروت.
التعريف بمؤلف الكتاب

وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن).

اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام 1984 م.

أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حيته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة، ومفاعلته العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام 1999 م في إسطنبول (تركيا).

اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام 1419 هـ لخدماته الجليلة وآثره العظيم في مجال الدعوة الإسلامية، وقدّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم.

رئاسته وعضويته للجامعات والمجمعات:

لا يزال يتولى سماحته الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه، ومنها على سبيل المثال:

الأمين العام لدار العلوم - ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانها) وتوفّق على معظم جامعات العالم التي تهتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع).

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).
رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لاهور (الهند).
رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا).
رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.
رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أتراباديش).
عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكنسة المكرمة.
عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة.
عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
عضو مجمع اللغة العربية الأردني.
عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن.
عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط.
عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).
عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديواند الإسلامية (الهند).
التعريف بمؤلف الكتاب

• وعدا ذلك يتولى سماحته الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه، حفظه الله وتوفِّعه بالإسلام والمسلمين (1).

* * *

(1) انظر كتاب المؤلف "أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب".

للاطلاع على سيرة حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومأثره القيمة في مجال الأدب، وموقفه من القضايا الإسلامية واللغوية، وتعريف لأهم مؤلفاته، صدر من "دار ابن كثير دمشق - بيروت عام 1999م".